الغزو الثقافي الغربي المعهد والمتوافق مع الاستعمار الحديث في الوطن العربي

د. عماد حاتم

تقديم :

عرفت القرون الخمسة الأخيرة من التاريخ الانساني اتجاهاً شاذاً في حركة التطور الانساني تمثّل في ما يسمّى بالاستعمار الذي عرف امتداداً كبيراً خلال مرحلة الكشوف الجغرافية والانقلاب التجاري ، وازداد ضراوة بعد « الانقلاب الصناعي » . وفي القرن التاسع عشر كان النظام الاستعماري قد استكمل صورته وانتهت معظم اجزاء العالم الى حفنة من الدول المتقدمة تكنولوجياً ، ووضعت « الحدود النهائية » للمستعمرات ، ونجم عن ذلك عدد من الحروب بين الدول الاستعمارية شهدت ذروة احتدامها في الحرب العالمية الأولى ، ثم كانت الحرب العالمية الثانية المرحلة الاساسية في عهد تصفية الاستعمار بشكله العسكري وبداية مرحلة « الاستعمار الجديد » .

كان الاستعمار خلال أطواره المختلفة يعني الاخضاع السياسي والاقتصادي للمستعمرات والضغط الفكري عليها وحرف تطورها الروحي عن مسيرته الطبيعية ، واستعملت لهذه الأغراض مختلف الوسائل فسيّرت لذلك الأساطيل والجيوش وأدخل سلاح الغزو الفكري الذي كان يسير مواكباً للسلاح العسكري أو ممهداً له ، وخاصة في الفترة المتأخرة من الغزو الاستعماري ، حتى إذا انسحبت الجيوش الآن بفعل يقظة الشعوب ونضالها المتصل في سبيل حريتها أخليت الساح لسلاح الغزو الفكري الذي يزداد اتساعاً وشراسة بازدياد الثورة الحديثة في عالم الاعلام وتقنيته .

وكان حظ بلادنا من ويلات الاستعمار ومآسيه وافراً . وبفضل النضال والتضحيات استطاعت بلادنا أن تجلي جيوش الاستعمار وان تحقق استقلالها السياسي ، وشرعت منذ مرحلة طويلة باستكمال مقومات استقلالها الاقتصادي والثقافي . واذا كانت المكتبة العربية قد قدمت اعداداً يصعب حصرها من الدراسات المتعلقة بالوجه العسكري والاستغلالي ـ الاقتصادي للاستعمار فانها لم تقدم بعد الا القليل في ميدان دراسة وجوهه الثقافية . ولا بد من تضافر الكثير من القوى لدراسة الظاهرة الثقافية في الغزو الاستعماري ، سواء خلال مراحل التمهيد للاستعمار أو خلال وجوده على أرض الوطن في صورة الغزو العسكري المسلح أو في صورة « الاستعمار الجديد » .

وهذه الدراسة لا تدعي لنفسها الاحاطة بكل جوانب هذا الموضوع الفكري المصيري المتشعب ، بل ولعل أول ما تشكو منه هو « عدم الاحاطة » الشاملة بكافة الجوانب المطلوبة ، وخاصة من حيث المساحة المكانية للوطن العربي وما ظهر فيها من نقص في الشواهد المأخوذة من مختلف الاقطار العربية . واذا كانت هذه الشواهد قد اقتصرت على بلاد الشام والجماهيرية والجزائر فليس بسبب الاستهانة بآثار الغزو الثقافي في الاقطار العربية الأخرى بل لبعد المراجع ولأن الفرصة هيأت للباحث امكانية الاطلاع على بعض منها دون الآخر . .

أما بالنسبة لفلسطين المحتلة فان الغزو الصهيوني قد اتخذ فيها جميع اشكال الاستعمار ودرجاته فهو استعمار عنصري عسكري استغلالي استيطاني وثقافي أيضاً ، غير أن الباحث لم يتعرض في دراسته هذه للممارسات الاستعمارية في فلسطين آملاً أن يكون الزملاء الأفاضل الذين تصدوا لذلك بدراسات منفصلة مستقلة قد وفوها حقها من الدراسة والبحث .

وأخيراً فان طول الفترة الزمنية التي حاولت هذه الدراسة تغطيتها كان سبباً في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة عبر قفزات كبيرة في الزمان الا أن الخيط الذي يربط بين المراحل هو محاولة تقصي مظاهر الغزو الثقافي الاستعماري على الأرض العربية وآثاره وسبل التصدي له .

الغزو الثقافي كتمهيد للغزو العسكري :

خلال المراحل الأولى للمد الاستعماري ، وعلى مدى قرون بطولها لم يكن الاستعمار يجد ضرورة لايجاد المبررات أو المسوغات لما يقوم به . كانت تلك مرحلة العربدة الاستعمارية المطلقة ، فالأرض « سائبة » والحقُّ للأقوى والاحتكام للسيف ، ولا حاجة للحوار مع الشعوب الضعيفة ما دامت هناك امكانية افنائها . وهكذا بادت شعوب بأكملها ، وأزيلت عن خارطة العالم حضارات لم نعد نذكر منها إلا أسماءها . وقد لخص الكاتب الانجليزي جوناتان سويفت

هذه المرحلة الطويلة الدامية بقوله « هي ذي ثلة من القراصنة الذين يحلمون بالحصول على عفو الحكومة ومكافآتها فينطلقون بحثاً عن أراض جديدة ويلتقون بالسكان المسالمين الآمنين الذين يكرمون وفادتهم بأحسن صورة ، فيطلقون على البدو اسماً يروق لهم ويستولون عليها باسم الملك ويضربون في أرضها لوحة فخارية أو حجراً كنصب تذكاري ثم يقتلون بضع عشرات من السكان ويقتادون بعضهم إلى السفينة كنموذج بشري ويعودون إلى الوطن لينالوا العفو . وهكذا تظهر المستعمرة الجديدة التي تم الحصول عليها بحق إلهي ، وما إن تسنح أول فرصة حتى ترسل السفن إلى هناك ، فاما أن يجلى السكان الأصليون أو يبادوا ، وتخضل الأرض بدماء أبنائها ، وهذه الثلة القذرة من الجزارين . . . تقيم المستعمرة العصرية المستحدثة لأجل نشر المسيحية بين المتوحشين الوثنيين وتعليمهم الحضارة ». وتتردد هذه اللوحة في رواية روبنسون كروزو الشهيرة . فبطل القصة الذي يجسد عقلية عصره الاستعماري ما كان يتخيل أي علاقة يمكن أن تنشأ بينه وبين ابن الجزيرة الموحشة بل ولا يتنازل السيد عن سؤال العبد عن اسمه ويفرض عليه اسم اليوم الذي لقيه فيه فكان « جمعة » أما الكلمة الأولى التي كان عليه أن يخاطب بها البطل فكانت « سيدي » . وخارطة العالم المعاصر لا تزال تحمل الكثير من البصمات الاستعمارية فقد جردت مناطق من أسمائها لتحمل أسماء ملوك المستعمرين وجلاديهم ومحظياتهم وأسماء مدنهم وقراهم . . فاحتفظت الخارطة بأسماء الفيليبين ، روديسيا ، بريتوريا ، مورشيوس ، فيكتوريا ، ساحل العبيد ، ساحل العاج ، وسوى ذلك ، وهي ذكرى حزينة لعصور مضت شاع فيها صيد الانسان والاتجار به وقتله ، مثلما شاعت التجارة بشعوب بكاملها فكانت مليكتها تنتقل من مستعمر إلى آخر بموجب تعويضات مالية وعقود دولية معترف بها .

وقد عرفت البلاد العربية محنة الاستعمار الحديث في القرنين الأخيرين بعد صراع طويل مع أوروبا كانت بلادنا خلاله أميل إلى الضعف ، وهو ما أوقعها تحت رحمة القوة العثمانية الزاحفة من الشرق . فلما أطل القرن التاسع عشر كانت الأراضي العربية تعيش مرحلة مسفّة من التخلف والضعف في ظل امبراطورية لا تستطيع أن تدرأ عن نفسها الخطر وترتبط بها بخيوطٍ متفاوتة الشدة ، فبينما لم تكن تربط ليبيا وتونس والجزائر باستامبول غير عرى واهية جداً كان محمد علي قد تمكن ـ خلال الفترة ـ من الاستقلال بمصر وقام بأول محاولة للتحرّر والوحدة العربية في الشرق وانتهى بتألب الدول الأوروبية عليه ثم بالسيطرة الانجليزية على مصر .

أما بلاد الشام فكانت وثيقة الارتباط بالدولة العثمانية وكان النظام الاقطاعي المسيطر قد حولها إلى واحدة من أكثر المناطق تخلفاً في الامبراطورية ، فالأرض ـ أداة الانتاج الرئيسية ـ بأيدي السلطان أو ممثليه وغالبية السكان من الفلاحين الرازحين تحت وطأة مختلف أنواع الضرائب ، وقد جعلهم الفقر والجهل فرائس لضروب من الأوهام التي مهدت لضروب أخرى من السيطرة . أما المدن فلم تكن مراكز صناعية بقدر ما كانت تلعب دور الوسيط التجاري وانتاج بعض المنتوجات الحرفية البسيطة ، وقد سار النظام العثماني بالبلاد خلال مراحل طويلة إلى تعميق هذا التخلف وإلى اضعاف البلاد التي كانت على الدوام محط الأنظار والمطامع الأوروبية . وقد وجدت هذه المطامع الفرصة سانحة عندما وصل الضعف العثماني إلى غايته وبرزت « المسألة الشرقية » ، التي كانت تقوم في الاساس على اقتسام تركة « الرجل المريض » ولكي تبرهن كل دولة على أولويتها وحقها في هذه التركة ضمن احتدام التنافس الأوروبي اتجهت الى بسط « حمايتها » على واحدة من الطوائف الدينية في بلاد الشام واخذت تتحين الفرصة لاستعمال هذه الورقة السياسية . ولم تكن السلطات العثمانية شديدة الاستياء من التناحر بين هذه الطوائف أملاً في أن يؤدي ذلك إلى التشاحن بين الدول التي تحميها، ولكن ورغم ما كان بين هذه الدول ، فانها كانت تسارع مجتمعة للتصدي لأي حركة منفردة تقوم بها أية قوة في الشام . وتكشف ذلك خاصة في التصدي الأوروبي المشترك لحملة ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ ثم لتنظيم الحملة الأوروبية المشتركة بعد فتنة ١٨٦٠ .

والطريف أن هذه الحماية كثيراً ما كانت تتم عبر التنسيق الاستعماري والتوفيق بين المطامع وعمليات التراضي الدولية ، فكان التنازل عن الحماية يعني الاقرار بالحق في الغزو . ونلمس ذلك مثلاً في التقرير الوارد من القنصلية العامة الايطالية بطرابلس الغرب بتاريخ ١ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٧ والذي ينص على أنه « بناء على الاتفاق الواقع بين الجمهورية الفرنسية وايطاليا الذي أشعر به الباب العالي في ٢٢ من شهر كانون الثاني (يناير) الماضي فانني اتشرف بابلاغ دولتكم أن المؤسسات الدينية بطرابلس وبنغازي التابعة للجمعيات الكاثوليكية قد أصبحت تحت وصاية ايطاليا »[1] .

واذا كانت طبيعة الاستعمار لم تختلف خلال تاريخه الطويل ولا تبدلت غاياته فان أساليبه اختلفت في بعض الأحيان ، والاختلاف بين الغزو الفرنسي المباشر للجزائر سنة ١٨٣٠ وغزو الايطاليين لليبيا بعد سبعين سنة (١٩١١) والذي جرى بعد مرحلة من التمهيد والتعبئة الفكريين يعني لوناً من النقلة النوعية في نمطين من الغزو الاستعماري . فالاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو الاستعمار المبرمج المدقق الذي لا بد وان يحسب حساباً للوضع الدولي وللوضع الداخلي ضمن الدولة المستعمرة والمستعمرة . وتزداد الأمور دقة في الفترة المحيطة بالحرب الكونية الأولى التي كانت تهدف لاعادة تقسيم المستعمرات فكان لا مندوحة من ادخال المبررات الدينية والفكرية كعنصر من عناصر هذه الحرب .

وهكذا فان الصناعة الاستعمارية التي أخذت تدور لانتاج البواخر الحربية والمدافع ومعدات الجنود كانت تتواكب بصناعة

أخرى لانتاج المبشرين والمنظرين والمغامرين الرحالة المكتشفين والمستشرقين وعلماء اللغات والاتنوغرافيا والصحفيين والمتخصصين في الحروب النفسية من اجل صياغة التمهيد الايديولوجي الذي يمكن بواسطته التأثير على شعب الدولة المستعمرة لتسهيل قيادته الى المذبحة الاستعمارية فتخترع لذلك شعارات ضخمة من العنصرية والتعصب الديني وضرورات المجال الحيوي ودوام الراية الوطنية خفاقة في كل مكان واستعادة أراضي الاجداد ونشر الهداية المسيحية بين المتوحشين . كما يحاول بها تهيئة الضغينة لقبول الرسالة الحضارية الاستعمارية وتصديق الوهم القائل بنقلها من الظلمات إلى النور .

كانت انجلترا صاحبة أكبر مساحة استعمارية في القرن التاسع عشر ، وكانت تنظر بعين الطمع الدائم الى البلاد العربية بعد أن رسخت أقدامها في الهند . وتواجهها في ذلك منافستها التقليدية فرنسا التي سبق لها أن نالت امتياز حماية الحجيج إلى الأراضي المقدسة منذ سنة ١٧٤٠ ثم دخلت روسيا القيصرية ميدان المنافسة بعد انتصارها على تركيا وعقد معاهدة كوتشك كنيارجي سنة ١٧٧٤ التي جعلت النفوذ الروسي يتجاوز الفرنسي الآستانة، يضاف الى ذلك رغبة روسيا في الخروج إلى البحار الدافئة ، وهو ما جعلها تتذرع بحماية المسيحيين الأرثوذوكس في الدولة العثمانية وبلاد الشام بصفة خاصة فضمنت القيصرية أيضاً امكانية التقرب من شعبها بالتظاهر برعاية الثقافة ونشر المدنية . وكانت المانيا حديثة العهد في الميدان الدولي وقد تحصلت على كثير من الامتيازات في الدولة العثمانية . وحاولت ايطاليا أيضاً احياء تقليد قديم في دخول المشرق عبر الارساليات الدينية وأطلت أمريكا برأسها تحاول أن تنال شيئاً من الغنيمة المشرقية بعد انهيار الرجل المريض .

والارساليات التعليمية ومدارس التبشير والتظاهر بالأهداف الانسانية ليس جديداً في تاريخ الشام ، وقد بدأت هذه الحملات بالسبيتارية[٢] ثم تلتهم فرقة الداوية والتيتون وكانت بمجموعها أشرس المحاربين ضد المسلمين ، حتى اذا ما أخرج افرادها من بيت المقدس ضربوا طويلاً في الأرض والبحر حتى استقروا في قبرص ثم في رودوس إلى أن استقروا في مالطة . ومن الأمور ذات الدلالة أن يسلك التبشير الأمريكي طريق العودة من مالطا وان يتسمى رجاله بالبريسبيتريين الذين أسسوا مركزهم ومطبعتهم هناك ومنها انتقلوا إلى بيروت .

هكذا صارت الدول الكبرى تقف وراء التبشير لمذاهب ثلاثة في بلادنا . ففرنسا وايطاليا « تحميان » المذهب الكاثوليكي وروسيا - الأرثوذوكسي وانجلترا وأمريكا البروتستنتي . وكان التزاحم على أشده بين الارساليات «الدولية»حتى يروى أن الدكتور فانديك رئيس مبشري الامريكان كان يقول : « اني ذاهب لأفتح مدرستين في تلك القرية ، فاذا قيل له انها لا تتحمل لصغرها ، قال سأكتفي بواحدة ولكنني متأكد أن اليسوعيين سيأتون بعد مدة قليلة ليفتحوا مدرسة ثانية »[٣]

وغني عن القول إن الدول الأوروبية لم تصدر في ذلك كله غيرة دينية ، وكان معظمها علمانياً فصل الدين عن الدولة بل ومنها ما كان ينال رجال الدين ببعض الأذى ، فهذا الغربي - على حد تعبير الكواكبي : - « لا دين له غير الكسب ، فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني إلا مخادعة وكذباً . هؤلاء الفرنسيون يطاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه ، بناء عليه لا تكون دعواهم في الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الاشباك »[٤] بل ان الفرنسيين انفسهم لم يطرحوا الغيرة الدينية سبباً لهذا الاهتمام بنشر لغتهم . . وحماية الكاثوليكية في المشرق ولا ذهبوا بعيداً في تبرير الاسباب التي دعتهم لصرف الجهود ورصد الأموال في سبيل ذلك عندما قالوا : « تركيا اليوم أشبه بحقل مغلق حيث تتنافس القوى الأوروبية الرئيسية من اجل النفوذ لا على المستوى الاقتصادي والتجاري فقط ، بل على المستوى السياسي أيضاً ، لقد أدركت كل من الدول الست الكبرى التي لها مطامع في الشرق الأوسط ومنذ فترة طويلة ان احدى أهم الوسائل لكي تضمن لنفسها « جماعة الموالين » في الشرق تكمن في معرفة هذه الجماعة لغتها وخارج اطار التعاطف السياسي يخلق تفوق لغة ما ميلاً طبيعياً للاتجاه نحو الأمة التي تشعر بالاشتراك معها في الأفكار والأذواق في كل ما تحتاجه من متطلبات الحياة ، من هنا كان هدف مؤسسي هذا العدد الكبير من المدارس والمستشفيات تثبيت « الجماعة » التي تحميها القوى الأوروبيةوتوسيعها»[٥]. وفي المقدمة التي كتبها وليم لانج ، سكرتير « الجمعية الافريقية » لرحلة هورنمان والتعريف بها أعطى التفسير الاقتصادي الاستغلالي لكل ذلك النشاط التعليمي ، ولم ينس أن يغطي ذلك كله بمسحة من الانسانية الاستعمارية في حمل الحضارة للمتوحشين : « فاذا استطعنا أن نقوم بهذا الدور النبيل بأن ننشر المعرفة ونحمل لهؤلاء القوم المتوحشين الغلاظ روح التقدم فان ذلك سيكون له عظيم الأثر على تجارتنا وخبراتنا . . واذا استطاعت منتجاتنا أن تحظى باهتمام الافريقيين وتجد طريقها اليهم سيكون من الصعب حينئذ أن نتخيل غزارة الطلب على سلعنا من تلك المناطق الشاسعة الغزيرة السكان »[٦] .

وهكذا تحت ذرائع حماية المسيحيين ونشر العلم انشىء على الأرض العربية عدد كبير من المدارس الأجنبية تعد بالمئات وتضم عشرات الآلاف من التلاميذ . وبلغ تأثيرها في النصف الثاني من القرن الماضي وبداية الحالي حدوداً يصعب دراسة الاتجاهات الفكرية التي عاشتها المنطقة آنذاك بمعزل عنها[٧] . وقد عززت هذه المدارس بالمطابع وحركة النشر والصحافة الواسعة الانتشار والتأثير . ففي ليبيا مثلاً « توسعت ايطاليا في افتتاح المدارس في نطاق نشاطها الاستعماري تمهيداً لاحتلال البلاد فأنشأت مدارس ايطالية في بنغازي والخمس ومحلة الظهرة بطرابلس ، وملجأ للصبيان ومدرسة ابتدائية للإناث وأخرى للذكور ومدرسة عليا اسمها مدرسة العلوم والتجارة في طرابلس . كما أنشأت مدرسة ليلية لتعليم الكبار

وعلمت هذه المدارس المنهج الفرنسي باللغة الايطالية مضافاً اليه اللغة العربية والعبرية واليونانية وتولت الحكومة الايطالية الانفاق عليها بشدة وضمت مدرسة العلوم والتجارة مكتبة ضخمة فيها ألفا كتاب ومتحف ومكان للرصد »[٨] . وكان لايطاليا في طرابلس صحيفتان تعملان على زيادة التغلغل الثقافي في البلاد ، ويبدو أن اللغة الايطالية حققت بعض الانتشار في البلاد بشهادة الرحالة الشهير الحشايشي ، الذي لاحظ أن أكثر الأوروبيين في البلاد من الطليان وان أوباش البلد ـ على حد تعبيره « لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون باللغة الايطالية » ، وليست لدينا معلومات واضحة حول مدى نجاح هذا التغلغل الثقافي في ايجاد « الجماعة » الموالية التي أشار اليها المصدر الفرنسي السابق ، لكن المعروف أن جوليتي ، رئيس الحكومة الايطالية والذي بدأ الغزو في عهده ، كان يعلق أملاً كبيراً على ايجادها ليس في ليبيا فقط بل وفي استامبول أيضاً وكان خياله يسخو في تضخيم صورتها وامكانية الاعتماد عليها .

قامت إيطاليا باعداد تمهيد شامل للغزو فكانت هناك تهيئة دبلوماسية دولية وكانت هناك اعدادات اقتصادية كبيرة أشرف عليها مصرف روما (وكان الفاتيكان أكبر المساهمين فيه) وقد أنشأ فرعاً كبيراً في طرابلس ، غير أن التمهيد الثقافي بقي واحداً من الميادين الملموسة في حياة البلاد الفكرية وكانت خطوطه تتجه إلى المواطنين تلوح بترقية البلاد واعمارها ونقل الحضارة اليها . وتجسّد ذلك خاصة في الانذار الذي وجهته حكومة جوليتي الى الباب العالي عشية الغزو ، وكان يلخص كل ما نفثته المدارس والصحافة من دعاية حضارية لصالح ايطاليا التي تريد انقاذ البلاد من التخلف . جاء في الانذار : « لم تتوقف ايطاليا اثناء عدد من السنين عن تذكير الباب العالي بالضرورة القصوى لوضع حد لتلك الفوضى والاهمال اللذين تركت فيها طرابلس وبرقة من جانب الحكم التركي حتى تتذوق هذه المناطق نفس التقدم الذي تم في اقطار أخرى من الشمال الافريقي . وهذا التعديل تتطلبه المقتضيات العامة للمدنية ويعد مصلحة حيوية من الدرجة الأولى بالنسبة إلى ايطاليا »[٩] وربما لم يكن ذلك الانذار قد وصل إلى المرسل اليه بعد عندما كانت بواخر الاسطول الايطالي تشحن الجنود إلى ليبيا وهم يغنون الأغنية التي لخصت أيضاً كل الأهداف الحقيقية للغزو ، وبينت أن العالم ما كان بحاجة لينتظر عشرين سنة أخرى حتى يتعرف على وجه الفاشية العنصرية الصفيق . تقول بعض كلمات الأغنية : « أماه ، صلي ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي الا تعلمين أن ايطاليا تدعوني . وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل محق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الاسلامية . . سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن . . » .

* * *

أما في الشام فاعتمد الاستعمار في تمهيده الثقافي على عنصرين متداخلين ، هما التبشير والتعليم المدرسي . والملاحظ أن صناعة التبشير تطورت كثيراً مع تطور التجربة الاستعمارية نفسها ، فصار للمبشرين مراكز ومكاتب ودوريات ومنظمات وادارات تقوم على توجيههم ، وصارت تعقد المؤتمرات المتخصصة لدراسة النتائج التي توصلوا اليها ولتبادل الخبرات فيما بينهم وتحسين طرق العمل ونوعية الافكار التي يمكن أن تجتذب المسلمين أو تؤثر عليهم وتذليل الصعاب التي يمكن أن تحول دون ادخال الأفكار على الناس وكيفية وغايات اشراك الاطباء والمتخصصين في اعمال التبشير وما إلى ذلك .

الا أن تجربة السنين الطويلة للمستعمرين أن التبشير بين المسلمين هو كالحرث في البحر لا يؤدي إلى أية نتائج ، فاتجه نحو التبشير الثقافي والسياسي اذا كان « هؤلاء الرهبان ينفذون الى كل مكان ويدخلون الى كل بيت بحجة اسداء النصائح الدينية وحقيقة انهم يتكلمون عن كل شيء إلا أمور الدين »[١٠] كان الأهم هو تبيان المثال الأوروبي الجدير بأن يحتذى وتأليب طائفة دينية على أخرى لإحداث الشرخ المطلوب في الوحدة القومية ، ذلك الشرخ الذي كان دوماً وحتى اليوم المنفذ الذي يسّر للاستعمار سبيل الدخول الى بلادنا . فكانت محاولات التقسيم والتفرقة بين المذاهب تتم في وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى الوحدة . وقد كانت مذبحة ١٨٦٠ واحدة من أوضح النتائج على ما كانت ترمي اليه دعوات التبشير ، وكانت حرب لبنان الأخيرة في كثير من وجوهها الثمرة الأكثر فاجعية للبذور التي القيت في التربة المذهبية في تلك الأيام .

أما التطلع الدائم الى تفتيت الكيان العربي في المشرق فلقي تطبيقه العملي حالما قيض للدول الاستعمارية أن تدخل البلاد ، وذلك في صيغةمعاهدةسايكس ـ بيكو التي فتتت المنطقة وحددت مناطق الاحتلال بالنسبة للدول صاحبة النشاط التبشيري . وبالاضافة الى ما كان في عقد المعاهدة ، وهو ما ضاعف من صعوبات توحيدها فيما بعد وبعد سنة من المعاهدة ، صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، ثم دخلت الجيوش الفرنسية سوريا فأوجدت لبنان الكبير بقرار من غورو ثم أوجدت أربع حكومات في سوريا هي ـ اللاذقية ـ الدروز ، سوريا وسنجق اسكندرون ، ولا تزال المنطقة حتى الآن تشكو من الآثار الفاجعة لذلك التفتيت .

أما المدارس الاجنبية فحققت انتشاراً واسعاً في المشرق العربي وتزايد عددها بسبب المنافسة الاستعمارية ، كما كان من أسباب ذلك التعطش إلى المعرفة لدى شعب عرف بعراقته الثقافية وأوصله الحكم العثماني الى درجة كبيرة من الاقفار الثقافي ، وبدلاً من أن تتنبه السلطات إلى ذلك وتعنى بنشر التعليم الوطني راحت تغدق التسهيلات والامتيازات على المؤسسات الاستعمارية ، بل وصار الكثيرون من أهل الشام يحملون جنسية احدى الدول الأجنبية ،

وصار القناصل يعينون من بين الأهالي ، كما كانت هذه الدول حريصة على ايفاد عدد من الطلاب الى عواصمها من اجل متابعة التحصيل .

ويضاف إلى هذا تفاقم الروح الشوفينية التركية والدعوة إلى الطورانية والانفصال عن العرب . وفي حمأة هذا التعصب الضيق بدأ الاتجاه نحو احلال التركية في كل مكان وبعث الشخصيات التركية القديمة وكتابة أسمائها على المساجد ـ كأسماء جنكيز خان وهولاكو بدلاً من أسماء الخلفاء الراشدين . وبينما كان قاموس الشوفينية قد صاغ مجموعة من الالقاب والشتائم الموجهة للعرب كانت المدارس توجه الى تعليم التركية وحظر التحدث بالعربية حتى في أبسط الشؤون العادية وأضيق اطار* . وفي هذا الاتجاه صارت تصب نشاطات جمعيات تركية مثل ترك درنكي ، ترك أوجاغي ، تورك يوردي وسواها . فليس غريباً ازاء هذا الوضع أن تتجه الانظار الى مناهج جديدة للتعليم يسر لها أصحابها كل أسباب التطور ووضعوا في فقرات برامجها ـ تعليم اللغة العربية .

وتجدر الاشارة أيضاً إلى أن الاستعمار الغربي في تلك المرحلة التمهيدية لم يكن في بلاد الشام قد صار بعد استعماراً ، بالمعنى المعروف ، فلم تكن بعد قد انكشفت أساطيله ولا أساليبه في القسر والعنف ولا ظهرت طبيعته الاستغلالية ، وهذا ما مكن المستعمرين من ارتداء القناع الانساني المنقذ ، والتلويح بمحاسن الغرب في وقت لم تكن أجهزة الاتصال قد كشفت بصورة كافية عما يجري في المستعمرات من وحشية وبطش ، وكانت اجهزة الدعاية وبرامج التعليم والصحافة تكرر تصوير جنة الغرب . ويعود الموفدون الى العواصم الأوروبية ليؤكدوا هذه الصورة وليشيدوا (منذ أيام الطهطاوي) بما حققه الغرب من ديمقراطية وبما لديه من قدرات على تسخير قوى الطبيعة واستخدام الحقائق العلمية في خدمة الانسانية . ومن خلال هذه المسارب الاعلامية أخذت تترسخ في الأذهان ملامح الشخصية البورجوازية الجديدة التي انتجتها أوروبا الصناعية الجديدة والتي كانت ، بما فيها من نشاط واستقلالية واحساس بالكرامة ـ الحلم الأعلى بالنسبة لمن عاشوا في العهد الاقطاعي المستبد بما فيه من استهتار بقيمة الانسان وحريته .

وهكذا وجد المشرق نفسه من الناحية الثقافية أمام وضع غريب ربما جاز تشبيهه بالتآزر الصليبي ـ الوثني ـ الأوروبي ـ المغولي الذي حدث إبان الحروب الصليبية هادفاً إلى خنق العالم الاسلامي . فالغارة الطورانية التي شُنّت على الثقافة العربية بطريق التجهيل أو التتريك تقابلها غارة أوروبية تبشيرية تعمل على ملء الفراغ الثقافي ولكن بمادة غربية باهرة تلوح دوماً بأفضلية الانموذج الأوروبي الراقي وفي الرؤوس تدور الموازاة بين الحضارة الأوروبية المتقدمة والوضع المتخلف على أرض الوطن . كما أن معرفة اللغات الأجنبية تفتح النوافذ نحو عوالم جديدة من الفكر والثقافة تجعلنا نعيد النظر في كياننا السياسي والاجتماعي والثقافي والحياتي كله . وفي ذلك الجوّ بدأت تتفتح بواكير الوعي العربي الحديث لدى ممثلي مختلف الطوائف . واذا كان المسيحيون قد سبقوا الى التصريح بهذه الأفكار ونشرها من خلال الأجهزة الاعلامية فبسبب تلك الحماية التي كانوا يتمتعون بها من قبل الدول الأجنبية ، لكن المشعل لم يلبث أن انتقل إلى أيدي المسلمين أيضاً ينيرون به متاهات الطريق المظلم . وتمثّل التصدّي لذلك الغزو بحركة التنوير العربية التي اتفق روادها على ان انقاذ الأمة والخروج بها إلى مصاف الأمم الراقية لا يمكن أن يتم الا من خلال عنصرين سنلاحظ ترددهما خلال بضعة أجيال تالية وحتى عصرنا الحاضر ، وهما ـ العودة إلى الجذور والأخذ بالمنجزات الحضارية الغربية . واذا كان هناك من خلاف آنذاك فقد دار حول ما يمكن أن يكون أصلاً وما يمكن أن يكون فرعاً ـ أي هل نبني مجتمعاً يعتمد القيم العربية الاسلامية ويستكمل ما يحتاج اليه من متطلبات الاصلاح من حضارة الغرب ، أم نبنيه مجتمعاً غربياً يستكمل ملامحه بعناصر من التراث العربي الاسلامي .

وهكذا فقد كان للوجود الثقافي الغربي في المشرق العربي آثار ملموسة على مستوى التفكير العربي . وكان الى حد ما واحداً من العوامل التي دفعت حركة اليقظة العربية دفعة كبيرة الى الامام من خلال اعادة تقويم الحاضر واستقراء ما يكون عليه المستقبل . ومما لا شك فيه أن الوجود الثقافي في المشرق العربي قد تعرّض منذ حملة نابليون على مصر والاحتكاك بالغرب وشيوع اجهزة الاعلام المختلفة لهزة صميمة ظهرت ملامحها في مختلف ميادين الثقافة ، غير أن ما يهمنا من ذلك هو ان اليقظة العربية آنذاك كانت يقظة على الخطر المحدق بالأمة وسؤالاً مصيرياً عن الطريق الذي يجب سلوكه نحو التحرر وبناء المستقبل(*) .

وكان أول ما اتجه اليه رجال النهضة هو الدعوة الى تنوير الجماهير وتزويدها بالمعرفة الصحيحة . فالجهل أساس كل ما عاشته وما زالت الأمة تعيشه من كوارث . ومن خلال هذه الدعوة بدأ التوسع في انشاء المنابر لمخاطبة الجماهير وأهمها الصحف والمجلات والمسرح ، كما اتجهوا إلى تبسيط اللغة وتطويع مفرداتها لمتطلبات العصر وتيسير مسالك قواعدها أمام الدارسين . ويصعب التوقف هنا عند مجموعة

(*) فصل الاستاذ سعيد الافغاني في دراسة هذا الموضوع في كتابه « من حاضر اللغة العربية » بيروت ، دار الفكر ط٢، ١٩٧٦، كما وأفاض الكواكبي في ذكر هذه الكراهية الشوفينية نحو العرب خاصة في كتابه « أم القرى » . الأعمال الكاملة . المرجع السابق ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(*) ان أعظم تجسيد لحركة تطويع اللغة العربية وتحديثها آنذاك تجسدت في حملة التعريب الكبرى التي بدأت في الشام خلال الحكم الفيصلي القصير الأمد والذي امتد عامين منذ نهاية الحرب العالمية وحتى الاتفاق الأوروبي على اقتسام المنطقة . فخلال هذه المرحلة من الحكم الوطني وبداية من الشهر الثاني لاجلاء الأتراك نظمت اللجنة الخاصة لتمويل الدواوين بالمصطلحات العربية بديلاً عن التركية وانشىء المجمع اللغوي ولم تمض الا بضعة أشهر حتى عُرّب الطب والحقوق وعكف الاساتذة على ترجمة المصطلحات وخاصة عن التركية والفرنسية وكان لذلك كله أثره البالغ على صمود اللغة والتراث العربيين أمام زحف الفرنسية خلال مرحلة « الانتداب » التالية . ينظر كتاب سعيد الافغاني : « من حاضر اللغة العربية » المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها .

معينة من المساهمين في ذلك كالبستاني والشدياق والمدور والنقاش والمويلحي . فكل الذين ساهموا في الصحافة والتمثيل والكتابة الأدبية والنقدية والعلمية كانوا من المساهمين في هذه الحملة . وبالاضافة إلى القصائد التي أخذت تمجد هذه اللغة العريقة القادرة على التصدي ومجابهة الغزو الفكري واللغوي بدأت تصاغ بها أول الموسوعات العربية المتجهة الى زحزحة ظلام الجهل وتكوين أول ملامح التجانس الفكري العربي .

وكانت الدعوة إلى الوحدة الوطنية مظهراً آخرمن مظاهر الرد على دعوات التفتيت الطائفي والاقليمي وتحدياً لما كان المستعمر يبشر به في كل مناسبة من فروق مذهبية . والملاحظ أن الاناشيد الوطنية التي ظهرت في تلك الفترة لا تزال تلمس قلوبنا بعفويتها وصدقها في الدعوة الدائمة إلى ما يوحدنا : ـ وحدة الدم ، وحدة اللغة ووحدة الماضي والحاضر والمستقبل .

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان

* * *

فلا دين يفرّقنا ولا حدّ يباعدنا
لسان الضاد يجمعنا بغسّان وعدنان

* * *

ولغة العرب اذكرينا واندبي ما فات
كيف ننساك وفينا نسمة الحياة
ونحن أبناء الألى شادوا مجداً وعلا
نسل قحطان الأبي جدّ كل العرب

لقد طمس الزمن أسماء مؤلفي هذه الأناشيد الا انهم عبروا عن التضامن المصيري الواحد وجسدوا فيها مظهراً من مظاهر انتصار العقل والنظرة الى العالم نظرة جديدة ومن أفق جديد يتجاوز بعيداً عالم العصبية المذهبية التي طالما دعا ويدعو اليها الاستعمار . .

كانت مصر آنذاك مركز ذلك التضافر والتعاون الأخويين ، القومي الاسلامي ـ المسيحي ضد العدو المشترك وفي سبيل الهدف الواحد . لقد كان أديب اسحاق وجميل المدور يعدّان نفسيهما تلميذين لجمال الدين الافغاني ومن أكبر مؤيديه في الدعوة الى اتحاد الشرق لمحاربة الاستعمار ، وكان محمد عبده وعبد الله النديم ينشران المقالات في صحف أديب اسحق ، وكان ولي الدين يكن ينشر في « المقطم » التي أنشأها يعقوب صروف كما كان جميل المدور ينشر في « المؤيد » ويصعب تعداد الآثار الأدبية التي كتبها المسيحيون والتي يشيدون فيها بمبادىء العدالة والخير والانسانية التي سادت مراحل الاسلام الأولى والتي بقي الدين يدعو اليها على مر العصور .

أما المظهر الاساسي من مظاهر التحدي فكان التوجه الى الاصلاح والقول بضرورة التقدم . ونلاحظ في ذلك تياراً آمن بالاصلاح ووقف في الوقت نفسه وقفة شديدة ضد الغرب الذي لم يحمل الى العرب غير العبودية والانهيار الخلقي . وكان من ممثلي هذا التيار عبد الله النديم واتصل من بعده في الجيل الثاني وكان من ممثليه مصطفى كامل وسليمان الباروني ثم اتصل في الجيل الثالث الذي جسدته نظرات المنفلوطي . كما أن تطرف الشبان الاتراك دفع بآخرين إلى الاقتداء بالنموذج الغربي ، وكان من أنصار ذلك التيار سليم البستاني ، جرجي زيدان ، يعقوب صروف وولي الدين يكن . وكانت « الهلال » احد منابره وقد استأثرت بأنظار هؤلاء شخصية الانسان الغربي (في مرحلة تكون البورجوازية لا في مرحلة تفسخها الذي نلاحظه الآن) تلك الشخصية التي تتسم بالحيوية واليقظة والفعالية والنشاط والتي كان يفتقر اليها الشرق حسب رأيهم .

إلا أن التيار الأكثر شمولاً كان يضم أولئك الذين اتجهوا الى رؤية ما في الغرب من حضارة وعادوا الى منابعهم الأصلية فوجوده موجوداً في تراثهم ، وهكذا كان اتجاههم الى الاصلاح يتميز بسمتين : الأولى أن أية دعوة إلى الاصلاح ـ وحتى من قبل دعاتها المسيحيين ـ ما كانت لتظهر منفصلة عن الاسلام والثانية هي العودة إلى الجذور الأولى للتراث اذ ان البواعث الأصيلة للاصلاح الأوروبي موجودة في التراث العربي الاسلامي الزاخر بقيم التجديد والحث على العمل ومذمة الخمول والثناء على المؤمن القوي وافضليته على المؤمن الضعيف . ولهذا نلاحظ أن من اطلعوا على الفكر الغربي سواء عن طريق القراءات أم الاسفار وما توصلوا اليه من قناعات حول ضرورة التغيير اكتشفوا أن ذلك كله ليس جديداً على تراثهم وعبروا عن اكتشافاتهم في كل مناسبة . بل والملاحظ أن أفكار رجال عصر التنوير الفرنسي (روسو وديدرو وفولتير) كانت أكثر ما اجتذب مفكرينا في عصر النهضة وذلك بسبب وحدة النظام الاقطاعي الذي حاربه كل من الفريقين . غير أن الملاحظ أن العرب في تلك الفترة لم يترجموا أولئك المفكرين الفرنسيين بل التفتوا الى ماضيهم يستلهمون أصول العدالة والخير واثقين ان الاسلام كان أول داعية إلى الاخوة والحرية والمساواة .

* * *

لقد اتخذ التمهيد الاستعماري الثقافي في المشرق العربي صورة غزو فكري شامل فرّخ فيما بعد بعض الاتجاهات الطائفية والاقليمية ، الا أن اليقظة العربية والدعوة إلى الوحدة والتآخي والى ضرورات الاصلاح والأخذ بأسباب الحضارة العصرية كانت أفضل اشكال التصدي لذلك الغزو .

الثقافة العربية في ظل الاستعمار

الحديث عن الغزو الثقافي لا ينفصل ولا يمكن أن ينفصل عن الحديث عن الغزو العسكري الاستعماري . فالغزو الثقافي جزء من الهجمة الوحشية التي تستهدف الاستغلال وتتجه الى جميع المقومات الحضارية للبلد المستعمَر ، المادية منها والمعنوية . ولهذا كان

المستعمرون يتجهون إلى السيطرة على الأرض وعلى الروح معاً ، وكان النهب الاستعماري لا يقتصر على الخيرات المادية بل ويمتد إلى خيراتها الثقافية مستهدفاً غايتين : الأولى اثراء الدولة المستعمرة ، والثانية تجريد المستعمرات من تراثها الثقافي وافقارها في هذا الميدان الحيوي الهام الذي يتصل بصميم كرامتها القومية بالاضافة إلى قطعها عن ارثها الثقافي المشترك الذي لا بد وان يدفعها ـ طال الوقت أو قصر ـ الى الوقفة المشتركة في وجه الوجود الاستعماري .

وخلال التجربة الطويلة التي عانت منها البلاد العربية تحت النير الاستعماري تعرضت لحملات من الاستلاب الثقافي لا نجد لها مثيلاً إلا في المراحل الأولى من تاريخ الاستعمار والتي استبيح فيها كل شيء . فعندما نزل التتار في دمشق ساقوا الأيدي الماهرة فيها في مجموع ما استلبوه من كنوز ونفائس إلى سمرقند ، وحذا سليم الأول حذوهم فأخرج من القاهرة الصناع والفنيين والمخطوطات والنفائس بل واخرج الخلافة أيضاً ، واتجه بكل ذلك الى عاصمة بلاده ، وجاءت جحافل الاستعمار الغربي فكان النهب والسلب « المنهجي » الذي امتد إلى المساجد والمكتبات العامة والخاصة والى القصور ودور العبادة والعلم ، وامتدت الأيدي إلى باطن الأرض فأخرجت الأكفان وحتى عظام الموتى واخرجت الروائع الفنية الأثرية ـ التاريخية التي سرعان ما كانت تأخذ طريقها بطرق منظمة « مبرمجة » الى متاحف الدول الاستعمارية وقصور الجنرالات ورجال السياسية . وان أبسط نظرة نلقيها على المتاحف العامرة في لندن أو باريس أو استامبول أو روما تبين للانسان هول الجريمة التي ارتكبت خلال مراحل التاريخ غير البعيد . أما عندما يدور الحديث عن الوثائق والمخطوطات فاننا نجد أنفسنا أمام كارثة حقيقية تتضح أبعادها بصورة أكبر عندما نحاول القيام بدراسة تاريخنا والتعرف على كياننا الحضاري ، فكم شد طلابنا الرحال إلى لندن وباريس وروما واستامبول ولشبونة لكي يطلعوا فيها على مصادر تاريخهم التي انتزعت من أرضهم لتحتل بعد ذلك عشرات الكيلومترات من رفوف المكتبات الاستعمارية ، بل لقد بلغت التخمة ببعض العواصم ان مخطوطاتنا فيها لم تبرمج بعد بسبب كثرتها الطاغية ، فهي ترقد هناك سجينة الأقبية والاهمال .

إن دَيْننا على الاستعماريين أكبر من أن يُقدّر بثمن . فليست ثرواتنا وعرقنا فقط هي التي بنت حضارتهم الصناعية الهائلة بل وان ثروتنا الروحية تسهم في تجسيد الحركة الفنية والثقافية لديهم . وقد وصل الأمر إلى حد تقمص شخصيتنا وادعائها في فلسطين المحتلة من قبل الصهاينة الذين لم يجدوا في ما يزعمونه من تراث مشترك أية مقومات لشخصية قومية فوضعوا أيديهم على الفولكلور الشعبي العريق في فلسطين وانتحلوا الملابس والغناء والموسيقى والرقص الفلسطيني وادعوه بعد أن ادعوا ملكية الأرض نفسها ، ويجسد ذلك أدنى ما يمكن أن تصل اليه يد الاستعمار من خسّة .

والتفريغ الثقافي في بلادنا لم يكن مقصوراً على انتهاب مواد الثقافة الروحية بل اتجه الى القضاء على أهم العناصر المكونة للروح والشخصية القومية وهو اللغة لأنها الوعاء الذي يحتوي أهم العناصر الثقافية لدى كل أمة . فكان امتهان اللغة والتضييق عليها وقتلها واحداً من الميادين التي نشط فيها الاستعمار الثقافي في مختلف ارجاء الوطن العربي .

واذا كانت اللغة العربية استطاعت أن تحقق بعض الحماية لنفسها بفضل الخدمة التي قدمت لها في عهد اليقظة العربية في مصر والشام ، فان الفرنسيين عندما دخلوا سوريا ابتدعوا طرقاً مختلفة لصدّ تيار الثقافة العربية ، منها الإهمال المتعمد للمدارس والمعاهد التي تدرس باللغة العربية . والتخاذل عن ايجاد الوسائل لتدريب المدرسين الذين تحتاجهم تلك المعاهد »[11] . وكان الأمر أشد حدة في ليبيا خلال مرحلة الغزو الايطالي . وتشير المفاوضات التي جرت بين الثوار الليبيين وبين الغزاة أن أهم نقطة كان يدور حولها الجدل ويصر المجاهدون على اقرارها هي السماح بتعليم اللغة العربية والاعتراف بها في جميع مجالات الحياة والادارة ، في حين كان الطليان يصرون على فرض لغتهم الغازية . أما في الجزائر فاتخذت الأمور أبعد حدود المأساوية ، فمنذ بداية الاحتلال بدأ التضييق على اللغة العربية ، وكان أول صوره إقفال المساجد وتحويلها إلى كنائس أو معسكرات أو . . . إلى بيعها في المزاد العلني ، والمساجد الاسلامية ـ كما هو معروف لا تقوم بوظيفة دينية فقط بل هي مراكز لنشر العلم وتعليم العربية بصفة خاصة . وقد ظل هذا التضييق متصلاً طوال سني الغزو الاستعماري ، ولم تمضِ الا بضع سنوات على الاحتفالات « القرنية » باحتلال الجزائر حتى أصدر شوتان ، وزير الداخلية الفرنسي مرسوماً باعتبار اللغة العربية اجنبية في الجزائر يحظر تعليمها أو التعلم بها* .

والمسلك الاستعماري نحو ثقافة المستعمَر يتمثل عادة في المغالطات وفي التشكيك بثقافة المستعمَر وقدرته ومكانته في السلم الحضاري ، وذلك لكي يقتنع أخيراً وبصورة تلقائية بأنه ليس إلا صفراً في الصرح الحضاري الكبير الذي يحتل المستعمِر فيه الذروة . « فالوضع الاستعماري اذن علاوة على أنه يصيّر الانسان غريباً عن شخصه فهو يجعله حاقداً على نفسه بل مخجلاً منها ، فبعد ما نزع مني اسمي وسلب مني ماضيَّ وذاكرتي صار يسرق مني أيضاً كياني النفسي وأساطيري وكل أسرار جمالي كانسان »[12] . وأمام هذا الفراغ أو التفريغ يتقدم المستعمِر بثقافته بكثير من الفوقية والعنصرية . فخلال فترات النهب والتجريد كانت تنظم مراكز للدراسات العربية والآسيوية والافريقية توجه الدراسات فيها وفقاً لأهواء المستعمِر وخططه ومصالحه ومنها يتم تسريب مختلف النظريات الثقافية العرقية التي تفسر كل شيء بالفوقية الاستعمارية والتركيب

(*) نشر صاحب هذه الدراسة بحثا بعنوان : «العربيةوالتعريب في الجزائر»نشر في « مجلة كلية التربية » جامعة الفاتح العدد ٨ ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٩ وفيه بعض التفصيلات حول هذا الموضوع .

الايديولوجي الخاص لدى رجال الاستعمار ، بينما يفسر التخلف الثقافي لأهل البلاد بالتخلف البيولوجي الذي لا سبيل إلى الخلاص منه . وبهذا يتم التمهيد لايصال هؤلاء إلى مركب النقص والشعور بالدونية والقبول بالوضع القائم بل وبمنة الاستعمار . . والبقية معروفة .

وعندما نتحدث عن احلال الثقافة الاستعمارية محل الثقافة المحلية فاننا لا نعني أن الاستعمار يود حقاً أن يقدم العلم أو الثقافة للشعوب . فقدر الانسان في الدولة المستعمرة محدد منذ ولادته : كمية مهملة في أرضها ، أجير في مزرعة المستعمِر ، عامل في منجم أو لحم لمدافع المستعمرين . فلم يكن التعليم أو التثقيف يوماً من مهام المستعمرين ، وقد طرح خليل قوت باشا على نفسه السؤال التالي قبل أن ينسحب من ليبيا عائداً إلى بلاده : « ماذا اعطى السلاطين . . لهذه القطعة الافريقية العثمانية غير السجون المخصصة للاحرار »[١٣] وتنسحب هذه العبارة على جميع البلاد التي ابتليت بالاستعمار . فالرمز الذي يذكر بالوجود الاستعماري ، سواء في ليبيا أم في الجزائر أم في أي رقعة من العالم ، ليس المدرسة والاكاديمية أو المنتدى الثقافي بل السجن ومركز الاعتقال والمنجم الذي تذوب فيه حياة الناس لتتزايد مرابح المستعمِرين . ان الاستعمار حرب لآدمية الانسان وبالتالي حرب ضد ثقافته وتربيته ، والأمّية هي المظهر الطبيعي « للحياة الثقافية » في المستعمَرات وقد لا تتجاوز نسبة من يذهبون الى المدارس الخمسة بالمئة من مجموع من هم في السن الدراسية . ولعل من المفارقات المضحكة المبكية (وما أكثر ما يحمله الاستعمار من مفارقات) ان عدم قيام الاستعمار بادخال التلاميذ الى المدارس وبالتالي تعليمهم لغته بطريقة منهجية صحيحة كان من الأسباب الرئيسية في بقاء اللغة الوطنية واستمرارها .

أما النظريات التي يحاول المستعمِر اقحامها في الوعي الانساني فهي دوماً قائمة على العنصرية والتضليل ، ومما يثير التأمل أن تطرح أمثال هذه النظريات لا لاستهلاك البلدان المستعمَرة فقط بل وان يؤمن المستعمِرون أيضاً بضلالها ، لكن يبدو أن الجو الموبوء المشحون بروح العداوة والقهر ييسر امكانية قبول أشد انواع التضليلات ، فاذا كانت كتب التاريخ في المدارس الفرنسية لا تزال تؤكد حتى الآن على أن ضربة المنشة كانت الذريعة لاحتلال الجزائر فليس غريباً أن يصرح لوي برتراند بقوله : « فنحن عندما دخلنا الى افريقيا لم نعمل شيئاً سوى استعادة ولاية فقدناها منذ عصور الرومان . ونحن كورثة لروما نطالب بحقوقنا التي وجدت حتى قبل دخول الاسلام هذه البلاد ، والاثر الرمزي لهذه البلاد ليس الجامع وانما قوس النصر « ثم يتساءل » ايحط من قدر الجزائري أو التونسي المسلم أن نذكره بأصله الروماني ؟ إن كل ما يهمنا في الجزائر هو اعادة خلق شعب الجزائر الروماني وان نعيد مسيرة الزمن من جديد »[١٤] .

ونحار في من هو الوريث الحقيقي للحضارة الرومانية عندما نسمع هذه النغمة تتردد بصورة أكثر الحاحاً في الأدبيات الاستعمارية الايطالية التي كانت تؤكد على أن غزو ليبيا كان مجرد استعادة أرض رومانية . وتعود جذور هذه النظرية الى أول أيام الاستعداد للغزو حينما كانت ايطاليا تجتر أوهام وراثتها لروما العسكرية القديمة القوية وتسمي ليبيا بشاطىء ايطاليا الرابع . وقد مجّد « دي مارينيس » ذلك التيار الايطالي« الذي يتمسك بما كان ينادي به ماتزيني بوجوب اداء رسالة ايطاليا في البحر الأبيض المتوسط بصفتها حاملة شعلة حضارة روما الخالدة والروح اللاتينية المجيدة » وأشار في خطابه الذي ألقاه أمام البرلمان بتاريخ ١١فبراير ١٩٠٧قائلاًان فكرة وحدة المتوسط : «ليست فكرة امبريالية ولكنها احترام قانون تاريخي يدفعنا الى الاهتمام بالساحل المقابل من هذا البحر »[١٥]*

وقد دحض فرانسيس ماكولا كل هذه الأفكار بعبارته الساخرة عندما قال : « كانت ايطاليا قد نمت ادعاء عاطفياً بحقها في هذه الولاية التركية طيلة أكثر من قرن وقد بنت الادعاء على أن طرابلس تقع على بعد مسيرة يوم بالباخرة من صقلية ، وانها كانت في السابق ولاية رومانية . ولا اجد حاجة للاشارة إلى هزال هذه الأسباب فقد كانت انجلترا أيضاً مستعمرة رومانية »[١٦] .

أما الفئة القليلة العدد التي قيض لها أن تدخل المدارس في العهد الاستعماري وتنال قسطاً من التعليم فتعرضت لعمليات غسيل دماغ عجيبة وفرضت عليها مفاهيم غربية ليس فيها تقريباً ما يستوقف النظر الا ان يكون من المستعمرين من يؤمن بها . ففي الجزائر مثلاً ادخلت مجموعة من المغالطات تقضي بأن الجزائريين ـ احفاد الرومان ووصلت أصولهم بطريقة عجيبة بالأصول الهندو ـ أوروبية وسميت عصور ما قبل الاحتلال بالعصور الغامضة كما عد دخول الاسلام وتعرب المنطقة طفرة شاذة في مجرى التاريخ مثلما عد البحر الفاصل بين الجزائر وفرنسا طفرة جيولوجية فصلت الجزء عن الكل حتى كانت ضربة المنشة ايذاناً بالقطيعة وعودة الأمور إلى نصابها .

يحدثنا الكاتب الجزائري مولود فرعون عن تجربته المريرة من خلال رؤية طفل بريء أقحم وعيه في هذه « الخدعة المروعة » حسب قوله فيقول : « منذ وقت مبكر جداً أوحى اليّ معلمي أن فرنسا أمي الثانية وأنني اليتيم الذي تعنى به ، وقد ملأني ذلك كله بالخضوع والامتنان القلبي فأحببت فرنسا أكثر من حب أي طفل فرنسي لها . وقد شرح لي المعلم مغزى الألوان الثلاثة . . وكان ينظر بنفس المستوى من الاعجاب الى روبسبيير والى الكورسيكي القصير القامة الذي دوخ العالم . إلا أن مقته كان موجهاً بكليته الى الداي حسين الذي أنقذتنا منشته الشهيرة من البربرية »[١٧] . وليس بعيداً أمام

(*) ويستنكر فانتانو سالفيميني في « كيف ذهبنا إلى ليبيا»هذا الموقف من بلاده عندما يصيح « ألم يكن يوجد في ايطاليا علماء جادّون ودارسون لهم ضمير ووجدان ؟ وماذا كان يصنع أساتذة الجغرافية والتاريخ في الجامعات وزملاؤهم في العلوم الانسانية والقانون الدولي والشؤون الشرقية ؟ هل صدقوا هم هلوسة الصحفيين وهذيانهم ؟ واذا لم يصدقوها فلماذا تغاضوا اذاً عنهم ؟ » المرجع السابق ص ٦٥ .

هذا التضليل المقيت وازاء براءة الطفولة ان يستظهر التلاميذ الأناشيد الاستعمارية ، ففي سوريا كان الحماس الوطني يشتط بالموظف الفرنسي احياناً فـ « يأمر أن يحفظ الأطفال في المدارس نشيد « المارسيليز » وهم لا يكادون يفكّون حروف الأبجدية في لغتهم »[١٨] . وكانت الفاشية الايطالية تسير في الاتجاه نفسه وهي تصك في ذاكرة الليبيين الصغار الأبرياء ألحان العظمة الرومانية القديمة عبر نشيد الشبيبة الشهير بعنفه وموسيقاه »* .

. وبالاضافة إلى التجهيل الجماعي وملء الرؤوس بالمفاهيم الاستعمارية المضللة كان الاستعمار دائم الاصرار على أن يفرض صورته ، صورة المتفوق العملاق ذي الجبروت من خلال جميع المظاهر التي يمكن أن تقع عليها العين واذا كنا نستمد بعض أمثلتنا من الجزائر فلأنها تقدم النموذج الأكثر مأساوية عن التطرف الاستعماري ومسلكه العنيف من اجل الحاق البلاد الحاقاً ثقافياً ، اقتصادياً ومصيرياً بما كان يسميه « الوطن الأم » ، فكان التخطيط يجري لحرف مسيرة الشعب بكاملها وتحويلها لتصب في مجرى الثقافة الفرنسية . كانت « الفرنسية » تشمل مختلف مناحي الحياة الظاهرية والضمنية .فاكسبت المدن والأرياف مظاهر توحي للانسان بأنه في فرنسا وأقيمت التماثيل للفرنسيين الكبار في مختلف المناطق ، وظهر في المدن ما يسمى بالأحياء الأوروبية التي فرضت طابعها فرضاً على الجو الشرقي الخاص للبلاد حتى أن بعض الكتاب عبر عن اشمئزازه من ذلك ، فكتب موباسان عن مظهر الحي الأوروبي في الجزائر فقال « منذ الخطوات الأولى يهزكم ويخجلكم الشعور بالتقدم الذي تم تطبيقه في هذه البلاد ، والحضارة البليدة الفظة التي قليلاً ما تتسق مع الظروف المحلية ، ومع الناس الاصليين ، والأقرب إلى العقل اننا نبدو برابرة بين هؤلاء البرابرة »[١٩] . وطمرت التسميات العربية في تراب النسيان ونبشت من الجعبة الاستعمارية آلاف الاسماء الجديدة التي ألصقت بالمدن والقرى والشوارع والمحلات ، وفي جنبات الأرض الاسلامية أخذت تتردد أسماء السان ميشيل والسان فيليب والسان جورج وانطوان وارنو . . وغيرهم من السانات ووضعت على الشوارع أسماء الأدباء والعلماء والفنانين والكتاب والشعراء والمصورين والمبشرين والمستشرقين الذين ساهموا بالعمل أو بالقول أو بالصمت في الجريمة الاستعمارية التاريخة* وأخرجت ملفات الجنرالات وكبار الضباط الابطال . الذين كانت ضمائرهم تحمل أكبر أوزار حروب الابادة ضد الشعب الجزائري فصارت تطلق على المؤسسات والميادين ، كل ذلك من اجل الضغط المتواصل على الوعي الانساني في كل مكان واشعاره بأن الجزائر الجزائرية قد زالت وحلت محلها جزائر فرنسية جديدة .

وفي ذلك الوقت كانت تنشط جحافل التبشير وقد يسّرت امامها كل السبل لكي تنقذنا من أنفسنا ومن قناعاتنا الدينية والحياتية . أما نشاط هؤلاء المبشرين واهتماماتهم وسياستهم فقد لخصته عبارة الكاردينال « فيجري » البليغة : « لقد وجب اعادة بناء الشعب وفصم وقف حياته على القرآن الذي ارتبط به منذ زمن بعيد ، مستعملين كل الوسائل الممكنة . ومن جهة أخرى يجب تلقين أبنائه ، وعلى الأقل ، مشاعر ومبادىء جديدة كما يجب على فرنسا أن تقدم ، اذا لم أخطىء أو بالأحرى تسمح بتقديم الانجيل أو تعمل على طرد هذا الشعب الى الصحراء بعيداً عن العالم المتحضر ، وبغير هذا كل شيء يصبح وسيلة لا تفي بالغرض ولا قدرة لها »[٢٠] .

وقد لا يدهشنا تصريح الكاردينال بـ « الانجيل أو الصحراء » اذا علمنا أن الصليب الاستعماري كان يسير دوماً في ركاب السيف ويكملان معاً سياسة واحدة .

وبينما توفرت للتبشير الديني كل الاسباب ، كان الدين الاسلامي يحارب بشتى الوسائل . ولما كان ابطاله بقرار من وزير الداخلية متعذراً فان سلطات الغزو وجدت الطريقة لمحاربته عن طريق اظهاره في هيئة كاريكاتورية عبر ما كانت تشجع على احداثه من بدع وفرق وطرق مختلفة متنافرة .

إن تفتيت الدين الواحد الى طوائف متشاحنة متضاربة من البدعية والطرقية وما شابهها يؤدي للاستعمار الدور نفسه الذي تؤديه التفرقة بين الأمة الواحدة على أساس مذهبي بل ان هذه الطرق كانت تقدم للاستعمار من الخدمات ما يتجاوز بكثير ما يمكن أن تقدمه جيوش بكاملها . فعلى أساس هذا التفتيت تنكمش كل طريقة على نفسها وتعلن أنها الأهدى الى الحق ، وبهذا تقوم أول الأسوار المصطنعة دون التفاهم واللقاء السليم بين أبناء الأمة

(*) كان مطلع النشيد : ومن كلماته :

يـا شـبـابـا يـا شـبـابـا   يا ربيعا مستطابـا
رومـة تـأبى الهـوانـا   نجمها يأبى الخمود
انـنـا أبـنـاء رومـا   جندها نحن القدامى
قـد سعينـا ألف ـ عـامـا ـ   ثم عدنا للعهـود

(*) لا بد من الاشارة ـ وموضوعنا يتناول واحدة من القضايا الثقافية ـ الى أن مرحلة الاستعمار الغربي الحديث للبلاد العربية تتزامن مع العصر الثقافي الذهبي ومرحلة الانسانية الجديدة بالنسبة لأوروبا . ومن الأمور التي تستوجب الدراسة مستقبلاً ـ الموقف المؤيد أو الصامت الذي وقفه مثقفو أوروبا من المجازر الاستعمارية ومن الوأد الثقافي المعروف ، والذي ـ اذا لم يكن شاملاً فقد كان عاماً . أم هل علينا أن نكتفي بالتساؤل الذي طرحه مولود فرعون اذ قال : « هل هو محض صدفة أن العالم الذي يرانا نقاسي لم يقتنع بأننا بشر ؟ حقيقة لسنا سوى مسلمين وربما تكون الجريمة التي لا تغتفر ، هذا سؤال أردت أن أوجهه لسارتر أو كامي أو مورياك » مولود فرعون . يوميات معركة الجزائر ترجمة عبد العاطي جلال . الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف ١٩٧٠ ص ١٥٣ .

الواحدة . وكان أصحاب هذه الطرق يؤدون بالنسبة للبسطاء من الناس أدوار المحامين والأطباء والقضاة فهم يفصلون في النزاعات ويعالجون الأمراض بالتعاويذ وما شاكلها ويحولون دون الاحتكاك بمثقفي المدينة فيضربون سوراً اضافياً دون التفاهم القومي كما انهم يتجردون عند اللزوم لإنزال لعنة الهرطقة والخروج على الدين بمن يجيء بالآراء الثورية الداعية إلى التغيير*. وكان ذلك من أهم ما يرمي اليه الاستعمار ، كما انهم كانوا يكثرون من المشاحنات والشقاق والفتن واستقطاب الانصار وتنظيم الزردات واظهار « الكرامات » وبذلك كانوا يؤدون خدمة اضافية للاستعمار عن طريق امتصاص النقمة الشعبية أو تسريبها في مسارب الفتن الطرقية والقبلية والمشاحنات الداخلية وهو ما يؤدي بمجموعه إلى وقف تطور الروح القومي الجماعي الموحد الذي يؤدي تصاعده الى الثورة . أما الثقافة الصحيحة المتجهة الى السموّ بالانسان وتمكينه من تحليل واقعه وادراك مسبباته بصورة موضوعية ثم البحث عن الوسائل الكفيلة بتغييره نحو الأفضل فانها تتحول إلى ضروب من الشعوذة والخزعبلات التي لا تتصل أيضاً بحقيقة الدين الذي يحض على إعمال العقل ويدعو الى الجهاد ضد الظلم ، بل انها في نهاية المطاف تعطي للمستعمرين امكانية جديدة للتعالي ولوصف المسلمين بالمتوحشين ودينهم بالهمجية ، كما تحول ذلك الحقد الكبير الذي كرسته أعوام الظلم الطويلة وتحرفه عن غايته الصحيحة المتمثلة في الاستعمار وتوجهه ليلاقي متنفّسه في الاخوة والاشقاء .

لهذا كله بدأ ابن باديس جهاده ، بالوقوف ضد الطرقيّة كما سنرى .

فما الذي حدث للثقافة العربية الأصيلة في ذلك الجو الاستعماري المسموم والمشحون بكل ضروب الكذب والتضليل والعنصرية ؟ لقد أثبتت تجربة السنين الطويلة أن العنصر الثقافي الأصيل لا يموت لكنه يتخذ لنفسه مسارات خاصة أمام الغارات الأجنبية وفي ظل الضغط والقسر الثقافي . وقد اتخذت الثقافة العربية وجهة الفنون الشعبية ومضت في طريق تطورها في ذلك الميدان البعيد عن أعين السلطة وأيديها واللصيق بقلب الشعب ومشاعره . فحكمة الشعب وطموحاته وآماله وحقده على الظلم وايمانه بالمستقبل ، كل ذلك وجد ملاذه في القصيدة الشعبية وفي الحكايات والأغاني والنوادر ـ والأمثال والاحاجي الشعبية التي أضحت المعبر الأصلي عن روح الشعب والأدب الشعبي القادر دوماً على أن يتخفى ويحتجب بعيداً عن عيون الرقابة والقمع أدى في هذا كله وظيفة اضافية وهي التعبئة الشعبية المتواصلة التي لم تتوقف وأصبح الذاكرة الجماعية الخالدة التي تسجل كل شيء فغدت الحكاية الشعبية رمزاً أبدياً للشهداء الذين قضوا دفاعاً عن الوطن ، فهي تغني نفسها بنفسها من خلال مختلف الاضافات والايحاءات البطولية ويصبح أبطالها المثل الأعلى الذي يود جميع الأطفال أن يقتدوا به والذي يسارعون الى تجسيده ساعة الخطر . أما القصيدة الشعبية فاحتفظت بشعلة الحقد على الظلم دائمة الاشتعال في القلوب وقصيدة « العقلية » الليبية والمعارضات التي دارت حولها ـ انموذج فريد من نماذج الأدب الشعبي العالمي التي وصفت قسوة المستعمر ووحشيته وحفظت في القلوب العهد الأبدي على التصدي والتحرر .

* * *

قطع ابن باديس وأصحابه طريقاً طويلاً وشائكاً في سبيل التمهيد للثورة التحريرية فكان يجب أن تبدأ الطريق من حيث « انتهى » الاستعمار . فبعد ضرب المقاومة الشعبية العنيفة للغزو بدأ الاستعمار بضرب الوعي الجزائري ووأده حتى تراءى له أن الأمور قد استتبّت وتم « ادماج » الشعب بالكيان الاستعماري ، وكان على ابن

(*) يلاحظ مدى انتباه المتنورين من رجال الدين الاسلامي إلى خطورة هذه الطرق في المقتطفات التالية التي نوردها من صحيفة « الشهاب » القسنطينية فقد كتب الطيب العقيبي في مقال بعنوان : « يقولون وأقول » : « يقولون إن الأولياء هم الذين يتصرفون في الكون احياء وأمواتاً ولا تتحرك شعرة في العالم الا باذنهم لأن الله أعطاهم الكون . فقلت سبحانك اللهم هذا هو الكفر بعينه ، وهذا هو البهتان العظيم ، إن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ليس لهم ولا لغيرهم من الأمر شيء بل الأمر لله وحده ، يقولون إن مشائخنا يضمنوننا من دخول النار ، وهم شفعاؤ نا عند الله وانهم يعلمون الغيب وما في الأرحام حتى انهم يحضرون عند تصوير الجنين في بطن أمه فيكون كما أرادوه ذكراً أو انثى ؟ وبعضهم يبيع الولد الذكر لطالبه بثمن معلوم واجرة محدودة وأما الغيث ونزول المطر فهو أسهل شيء عندهم وفي أيديهم ومتى أرادوا نزوله نزل وانما يمنعهم من ذلك عدم رضا الله عن العباد لأنهم قصروا في خدمة المشائخ وفسدت نيتهم في آخر الزمان » الشهاب قسنطينة ١٨ فيفري(شباط) ١٩٢٦ . ويقول محمد سعيد الزاهري في هذا الصدد : « ولقد رأيت من هؤلاء المتدينين من لا يؤمن بالبعث ولا يصدق بأن الله يحيي العظام وهي رميم ثم رأيته يؤمن ـ اذا كان في جماعة من جماعات الطرق بأن « الغوث » الفلاني أحيا بغلة بعد موتها وان الآخر طلع الى السماء أو تطوع لجر الشمس مع الملائكة . حتى خرج « انترتيا » ثم هبط الى الأرض » ص ٣ ومن مقال لعبد الكبير الفاسي بعنوان : « العلماء والطوائف بالمغرب » نقرأ ما نصه « لا يخفى على القرّاء أن الطائفة العيساوية تحتفل بمولد شيخها محمد بن عيسى المختاري رحمه الله في نفس اليوم الذي يحتفل فيه سائر المسلمين بمولد نبيهم عليه الصلاة والسلام . فيفد بهذه المناسبة على مدينة مكناس حيث مدفن ذلك الشيخ الوفود الكثيرة من سائر انحاء المغرب الأقصى ويكون ذلك اليوم وما بعده أيام مناكر وبدع تأباها الشرائع والطبائع ولا تصدر عادة إلا عن المجانين وممن لا أخلاق لهم وقبل ذلك اليوم بنحو أسبوع يأخذ أصحاب تلك الطائفة في سائر مدن المغرب وبواديه في شطحاتهم وأكلهم اللحوم النيئة المنتنة والزجاج المكسر والعقارب السامة يجولون في الأسواق والديار ، والنساء والصبيان معهم في ذلك على حد سواء ، ومما يزيد في الطين بلة أن الأمر لا ينحصر في الويلات التي تقوم بها هذه الطائفة الضالة بل إن اختها الطائفة الحمدوشية التي هي أضل منها تشاركها في ذلك بما هو أضر من اكل اللحوم النيئة أي بشدوخ الرؤوس حتى يتطاير منها الدم ويسيل على وجوه أصحابها فترى منهم من يلعق ذلك الدم الذي يتغير لونه وطعمه وريحه بمرور ساعات عليه واختلاط غبار الشوارع فيه . . كل هذا واحسرتاه يقع بمرأى من الأجانب وهم يسجلون ذلك على الاسلام بصورهم الشمسية والمتحركة فتباع في مشارق الأرض ومغاربها وتكون عندهم من أقوى الحجج على أن الاسلام دين لا يصلح الا للهمج والمتوحشين » الشهاب . قسنطينة ، ٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٦ ، ص ١ .

باديس وأصحابه أن يبدأوا بايقاظ الوعي تمهيداً لايقاظ حركة المقاومة كلها . وكانت السبيل الى ذلك ـ ازاحة الغلاف الثقافي الدخيل الذي فرض على النفس والغوص الى الجوهر الحقيقي للانسان . فبدأ الامام ابن باديس بالتعليم وبتعريف الناس على الدين الصحيح الذي يرفض أن يستعبد انسان انساناً ، وبدأ حملته ضد الشوائب التي تغلف جوهر الدين ولذلك انطلقت من جانب الطرقيين أول محاولة لقتله . تحت ذريعة تعليم الدين نال الموافقة على تعليم العربية فبدأ نشاطه في ذلك عبر عدد من الكتاتيب البسيطة التي كانت تفتقر إلى أدنى الشروط التي زودت بها المدارس الفرنسية . لكنها كانت بداية الزحف الثقافي المضاد وكانت أشبه ما تكون بتلك البنادق « البدائية » التي تصدى بها جيش التحرير في أول مراحل الحرب للأسلحة الاستعمارية الحديثة فاستطاعت أن تصمد وتتطور وتنتصر لأنها كانت تعتمد على الصدق والتفاني وعلى روح الشعب .

وشيئاً فشيئاً بدأ التصدي للفرنسية ولم يطل الوقت حتى بدأت الأجواء تردد صدى نشيد جديد يعيد إلى الأذهان عفوية الاناشيد المشرقية الأولى وصدقها واستعداد النفس لتقبلها . وكان النشيد يحمل بكلماته البسيطة كل صور الرفض للفرنسية ويتألق فيه الجوهر الأصيل للانسان الجزائر ، فكان تردده شاهداً على بداية وعي جديد ورداً على المحاولات التي امتدت عشرات السنين لتحويل مسيرة الشعب . تقول بعض كلمات النشيد :

شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
من رام ادماجاً له رام المحال من الطلب

وأخذ الامام يوقع مقالاته بأسماء تعيد إلى الاذهان امجاد الماضي الذي حاول الاستعمار دفنه . فترددت أمام الانظار أسماء « الكتامي » ، « الصنهاجي » « الزواوي » و « العبسي » وصارت الصحف تنشر الأنباء عن الثورة السورية وثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب وعن البطولات الليبية ضد الطليان وعن قضية فلسطين لكي تشعر القارىء بأنه جزء من أمة عريقة ، كبيرة تنتفض لنيل حريتها ، ومن طيات التراث بدأت تتردد قصص عن البطولة العربية ، وفي ضوء ذلك كله بدأت اتجاهات الامام ابن باديس نحو التربية السبارطية للشبيبة واعدادها للمعركة الحاسمة ، فباسمه يرتبط انشاء الفرق الرياضية والكشفية والتي كانت تعبيراً واضحاً عن أن الوعي القومي سيجعل الشعب يتحسس عضلاته وينميها استعداداً للمعركة الفاصلة .

لقد كانت حركة الوعي في المشرق في بعض جوانبها تصدياً لغزوة خارجية وكانت حركة الوعي في الجزائر تصدياً لمحاولات الوأد والافناء المتكررة المتواصلة ، الا انهما التقيا معها في المنطلق الاساسي وهو العودة إلى الجذور ، احياء اللغة والفهم الصحيح للدين بصورته الديمقراطية المتسامحة والداعية الى التصدي للظلم ، والشعور بالكيان القومي المشترك الموحد . .

الاستعمار الجديد والغزو الثقافي

تضاربت الأقوال في ماهية الاستعمار الجديد ومدى انتسابه إلى الاستعمار العسكري السابق ، بل ووقف العديد من مفكري الاستعمار ضد هذا المصطلح وعدّوه من المصطلحات الجديدة التي صاغها اعداؤهم أو استنبطها مفكرو العالم الثالث لكي يبرروا بها تخلفهم وتبعيتهم المزمنة ، لكن هذا النمط من الاستعمار قائم على مساحة العالم العربي المعاصر وهو يمثل « المرحلة المعاصرة في تطور الظاهرة الاستعمارية وانتقالها من الطور التقليدي المباشر إلى الطور غير المباشر والأكثر تنوعاً وتعقيداً في أدواته وأساليبه»[٢١]. وهذا الطور من الاستعمار يعني في معظم الحالات استبدال اسلوب الوجود العسكري في الضغط الاستغلالي على الشعوب بشبكة من الأحلاف العسكرية وتكبيل الدول الحديثة الاستقلال بالمعاهدات والأحلاف ثم خلق واذكاء الخلافات فيما بينها سعياً إلى اضعافها والى تطوير الصناعة العسكرية للدول الاستعمارية والهيمنة بالطرق المختلفة على اقتصاد الدول الحديثة الاستقلال وتوجيهه الوجهة الرأسمالية وتحويله إلى اقتصاد استهلاكي أو « خدماتي » فقط والزامه بالتبعية الأبدية للنظام الرأسمالي والعمل على رفد الحكومات بعناصر موالية للاستعمار ، سواء عن طريق التأثير المباشر أو فرض الانقلابات العسكرية أو غير ذلك ، الا أن ما يستوقفنا من ذلك كله هو وجه الغزو الثقافي الذي تتوسل الدول الاستعمارية به لتحقيق هيمنتها الاقتصادية والعسكرية والستراتيجية بصورة غير مباشرة على مصائر الدول المستقلة في ما يطلق عليه اصطلاحاً « العالم الثالث » .

والحق أن الوضع الذي يعيشه الوطن العربي يقدم أنموذجاً فريداً على هيمنة أساليب الغزو الثقافي . فقد أجليت الجيوش الأجنبية من معظم الأراضي العربية وصار لكل دولة راية وطنية وصوت في منظمة الأمم المتحدة ومعظم الهيئات الدولية كما وصار لها وزارتها الخاصة بالشؤون الخارجية ودبلوماسيوها ومنهجها التربوي وتطلعاتها الى المستقبل . . واكتسبت الصورة المتحررة من كل شيء إلا من الغزو الفكري الذي يكاد يتغلغل في جميع خلايا مجتمعنا العربي ليضعنا جميعاً في موقف الشعور الدائم بالانبهار الحضاري أمام عظمة الغرب ويزرع في أعماقنا مركبات النقص الخالدة .

وقبل أن نبدأ باستعراض الاتهامات الموجهة إلى الاستعمار ـ خاصة واننا قد استرحنا لعادة تعليق مشاكلنا على مشجبه ـ يحسن بنا أن نشير إلى الاسباب التي يسّرت لهذا الامتداد الواسع في الغزو الثقافي لبلاد العرب والتي يمكن تلخيصها بعبارة « التخلف » ، ذلك التخلف الذي تعمل على تكريسه عوامل ضمنية وخارجية . فمعظم النظم التي جاءت بعد اجلاء المستعمر لم ترد أو لم تكن قادرة على طرح البديل الثوري الصحيح للتركة الاستعمارية والقيام بالتصفية الشاملة للاستعمار . ولا نتحدث هنا عن النظم التي جاءت مجرد

بديل للسلطة الاستعمارية ووقفت متكاتفة معه بعد خروجه الشكلي وتعاونت معه على استغلال الشعب* وزيادة تبعيته للآلية الاستعمارية. وما تكريس التمزق والتشتت العربيين الا طريقة من طرق الحيلولة دون اتخاذ خطة ثقافية عربية موحدة تستطيع أن تتصدى للغارة على الثقافة العربية وتضمن تبادل الخبرات والمعلومات بين مختلف المناطق . واذا كان الغزو الثقافي ـ كما أشرنا في الفصل السابق لا يتم الا بعد اعداد التربة الصالحة لذلك ، فاننا نحن الذين نقوم باعداد هذه التربة باصرارنا على التخلف الثقافي لأسباب يصعب حصرها حتى صرنا نتقبل الكثير مما يجيء به الاستعمار شريطة أن يصل جاهزاً « معلباً » لا يحتاج الى كثير من الفحص واعمال العقل في معرفة الاسباب والنتائج . لقد سرت روح الاستهلاك في حياتنا الفكرية فصار من الصعب أن نهتم بالابداع والانتاج والغوص في عالم المعرفة ما دام هناك من سبقنا الى هذا العالم فلم يتبق لنا الا أخذ ما نراه جاهزاً . وقد يعترض معترض ويستنكر هذه التهمة مشيراً إلى الحركة الهائلة المتمثلة في الاعداد التي « لا تحصى » من المطبوعات والدوريات والصحف والمجلات والكتب العلمية** والكتب الموجهة للأطفال العربية . بل وقد يشير إلى أن « تجارة الثقافة » هي الآن الأكثر جدوى وربحاً بدليل هذه الوفرة الفياضة من دور النشر والتوزيع والاعداد الكبيرة من المجلات المحلية و « المهاجرة » والتي صارت تفرخ بصورة دورية مجلات جديدة تتنافس فيما بينها بالزخرفة وحسن الاخراج وأخيراً هذه الموسوعات المتزايدة العدد من الكتب التربوية وسوى ذلك ، الا يدل هذا كله على يقظة ثقافية واهتمام عربي يوحي بالتفاؤل ؟ ولكن قد يكون هذا كله دليلاً لا يدحض على التغلغل الفكري الأجنبي في كياننا ، ففي الشهر الماضي مثلاً نشرت احدى المجلات « المهاجرة » حقيقة طريفة ، على لسان احد الصحفيين ، تستحق التوقف أمامها قليلاً : ـ « احد الزملاء شده غرام طارىء بالأرقام فجمع الصحف العربية وخرج باحصائية مدهشة ، وهي أن تلك الصحف تحتوي على ٩٠ بالمئة من الاخبار العربية منقولة عن وكالات الانباء الأربع الكبرى في الدول الرأسمالية وتنقلها بآرائها وأفكارها المعادية طبعاً للعرب ، وتأخذ الصحيفة الصادرة في بلد عربي عن وكالة فرنسية اخبار بلد عربي آخر مجاور . وقام الزميل نفسه بتحقيق حول مكاتب وكالات الانباء العربية في باريس فخرج بنتيجة مذهلة وهي أنها جميعاً تترجم أخبار الوكالة الفرنسية ولا تشكل الأخبار التي تستقيها من مصادرها الخاصة أكثر من ٥ بالمائة ولا مجال لفتح ملف بعض الصحف والمجلات التي تقوم بترجمة المقالات الصادرة في الصحف الأوروبية ترجمة حرفية وتنشرها وكأنها رسالة خاصة بها ، وتشكل تلك الرسائل الخاصة أكثر من نصف موادها »[٢٢] . فهل يحتاج هذا الى تعليق وهل هناك ما يبرر هذا الركون الى المنابع الغربية غير رغبتنا في تعطيل عقولنا ، ثم هل هناك ما يسمح لنا أن نأمل بأن تكون الكتب الأخرى التي تصدرها دور النشر العربية بريئة من هذا التواكل والتطفل والانتحال ؟

اننا لم نتحرر من الاستعمار بصورته العسكرية الا عندما بدأنا بالنقد الذاتي وتساءلنا لماذا نحن مستعمَرون ؟ ولن نستطيع مواجهة الغزو الثقافي إلا بعد أن نواجه ذاتنا ونعترف بقسط وافر من المسؤولية في تيسير المسالك لهذا الغزو . واننا استطعنا في بعض الأحيان أن نحقق للاستعمار ، عبر توجهنا الى التعليم ، ما لم يستطع أن يحققه بأساطيله ومدافعه ، فحققنا للغاته انتشاراً واسعاً في مدارسنا وخصصنا لها من الحصص الدراسية أكثر مما نخصصه للغتنا القومية التي ضحينا من اجل صيانتها بالدماء والأرواح .

والى العوامل المذكورة في اعداد التربة الصالحة للغزو ، نضيف أيضاً حرص الدول الاستعمارية على تحقيق المكاسب المادية من تخلفنا الثقافي ووقوفها الدائم في وجه تقدمنا . ونحن هنا لا نتحدث عن المكاسب الخيالية التي تتحقق أثماناً للاسلحة والآليات والطعام والملبس والمأوى وتنفيذ المشاريع بل ما أعنيه ما يؤخذ كثمن للخواء الثقافي والتبعية الفكرية ، فالاستعمار هو الذي يحدد أثمان معالجة مرضانا ويفرض أثمان كتبنا الدراسية والجامعية* والصحف والأشرطة المرئية والخيالية بل ويفرض ما يريد ثمناً لمخطوطاتنا النفيسة التي نضطر لاستعادتها ولو بالتصوير كما ندفع ما يراد منا ثمناً للملابس التي لم نضع تصاميمها ولكل ما نستهلكه من أثاث وتجهيزات لم نشارك في تصميمها أو صنعها . .

وعلاوة على ما تقدم فان التحدي الثقافي يسير في خط بياني متصاعد ، في حين نزداد عجزاً عن تقديم الابجدية الثقافية لشبيبتنا

(*) في فصل « مزالق الشعور القومي » من كتاب « معذبو الأرض » يقدم فرانتز فانون تحليلاً معمقاً لمسلك البورجوازية الوطنية وتعاونها مع البرجوازية الاستعمارية في استعمار الشعب ، ينظر : فرانتزفانون . معذبو الأرض ترجمة سامي الدروبي وجمال الاتاسي . بيروت دار العلم ١٩٦٧ ص ١١٤ ـ ١١٥ ويقدم ريني دوبستر حقائق مذهلة عن الوضع الذي كانت تعيشه بلاده بعد الاستقلال اذ أن « الحكم الوطني » أوصل البلاد إلى مستويات فاقت ما كان الاستعمار قادراً على انجازه فالأمية تشمل ٨٩ ٪ من السكان ونسبة التعليم الثانوي ١,٧ ٪ ومتوسط عمر الانسان ٣٢ سنة ، ينظر ريني دوبستر . المرجع السابق ص ٣٠٢ .

(**) في مقال له حول الترجمة يذكر أحمد حسن مأمون أن تركيا تصدر سنوياً ١٤٨٢ كتاباً في مجال العلوم والتكنولوجيا بينما لا تصدر الدول العربية مجتمعة أكثر من ٥٠٠ كتاب فقط . ينظر « لماذا نهمل الترجمة الى العربية » العربي العدد ٢٦٨ مارس ١٩٨١ ص ٦٢ .

(*) يطبع بعض الناشرين الأمريكان الكتب المدرسية للمدارس المتوسطة وللجامعات في عدد من الدول الافريقية وكانت بعض الشركات تتأهب لانشاء فروع لها في هذه الدول وقد باشر بعضها في تطبيق ذلك وقد اثنت الـ « افريكا ريبورت » على هذه الظاهرة بقولها ان هذه الفروع تتمتع بامكانيات كبيرة للغزو فهي تملك القوة البشرية والمال وتستخدم خبرة الشركة الرئيسية . وهكذا وتحت ماركة « صنع في افريقيا » تحقق هذه الشركات لنفسها مكسبين ـ المال والتغلغل الايديولوجي . ينظر :

Africa - Report . November, 1970.

من اجل ابعادها عن تأثيرات هذا الغزو . فالأمية لا تزال واحدة من مشاكلنا الرئيسية وهي تتخذ في بعض أقطارنا حدوداً من السرطانية جعلت الأصوات تنادي لا بمحوها بل بالحد من تفاقمها . وهذا يؤدي إلى وقوع شبيبتنا فريسة البرامج والاذاعات التافهة والمجلات غير المحتشمة والاستعمار الذي جنى في حينه المرابح الطائلة من تجارة الأفيون الذي فرضه بالقوة على بعض الشعوب لا يتورع عن تحقيق مرابحه حتى من خلال هذه التجارة بالاشياء الخسيسة .

وأخيراً ، ما هي الصور والمظاهر التي يتخذها هذا الغزو الثقافي على الساحة العربية ؟

ذكر كيريل هاسكنز مدير معهد كارنيجي مرة « ان من المهم أن نتذكر أن المعارف يمكن أن تغرس في التربة المحلية مثل الأنواع الجديدة من القمح » . ومن هنا ينطلق التوجه الأمريكي الحديث إلى غرس الأفكار والمثل الرأسمالية في اجواء الشعوب الحديثة العهد بالاستقلال ، مدركة أن اختيار هذه الدول لطرقها يتحدد الى درجة بعيدة بنوعية التوجه السياسي للمثقفين والمفكرين . ومن هنا أيضاً تنطلق الرغبة في احتلال « منابع » الفكر والسيطرة على مراكز الاشعاع الفكري ومنابره وخاصة منها ميدان التعليم . ونذكر أنه عند حدوث أول تبدل في السياسة المصرية نحو أمريكا سارعت هذه الى دخول الميدان الثقافي ومحاولات التأثير على النهج الثقافي المصري بكامله . . ففي نهاية ١٩٧٤ رست « الجامعة العائمة » الأمريكية في ميناء الاسكندرية وزار ٦٠٠ من طلاب وأساتذة الجامعة الأمريكية المراكز العلمية في مصر وفي تلك السنة عقدت اتفاقية بين الجانبين حول اقامة بضع عشرات من المدارس في جمهورية مصر العربية بمساعدة من أمريكا وتجهيزها بالمعدات الأمريكية الحديثة ثم بدأ الاختصاصيون الأمريكيون بالمساهمة في وضع المخططات والمناهج الدراسية . وفي نوفمبر من سنة ١٩٧٤ وقعت اتفاقية تساهم الولايات المتحدة بموجبها في اعادة تنظيم المدارس في المدن الواقعة في قطاع قناة السويس وتكوين مراكز لاعادة تأهيل المدرسين المصريين بمشاركة الخبراء الأمريكان كما تنص الاتفاقية على ايفاد الاختصاصيين المصريين إلى أمريكا بهدف الاطلاع على الاساليب الامريكية لتنظيم الخطط والبرامج *

وأهم ما تلجأ اليه الدول الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التظاهر بالحياد السياسي وتقديم « المساعدات » الثقافية من خلال مؤسسات حيادية و « خيرية » (مثلما كانت تفعل الدعوات التبشيرية) كصندوق روكفلر وكارنيجي وفورد وهي تعمل دائبة على توجيه الفكر وعلى توسيع آفاق الاحتكارات الامريكية ، وأهم ما تسعى اليه هذه الصناديق الدعاية « للديمقراطية » الغربية والامتداح بغير حدود لمبادرات القطاع الخاص ، كما انها تعمل على انتقاد الطلاب وتقديم المنح الدراسية لهم في المعاهد الأمريكية ، وعادة ما تنتقي هؤلاء الطلاب من أوساط معينة اثبتت ولاءها للغرب ، كما وتتحول المنح المقدمة احياناً إلى وسائل لاستمالة بعض موظفي جهاز الدولة . يضاف إلى ذلك أن هذه الصناديق الخيرية التي تنطلق في الاساس من أكبر التجمعات الاحتكارية الامريكية تضمن بتقديم المنح لطلاب العالم الثالث ، توجيههم نحو النظم التقنية الأمريكية والتي يحاول المتخرجون بعد ذلك غرس نظمها في بلادهم وهو ما يضمن تبعية أكبر للتكنولوجيا الغربية .

هذه الدعوة إلى التوجّه نحو الغرب تمثل واحداً من الأهداف التي تسعى اليها الدول الغربية عند اقامة جامعاتها في بلادنا . فهذه الجامعات قنوات جديدة للتغلغل الايديولوجي يتم فيها تبادل المعلومات ويستقدم اليها طلاب الدول الغربية للقيام بأبحاثهم « في عين المكان » ومعرفة أفضل الطرق للتأثير علينا بالصورة المطلوبة كما ان هذه الجامعات تتجه في العادة إلى طبقة معينة مرشحة لتولي المناصب القيادية في المستقبل ، فالتحاق أبنائها بالجامعات الغربية في بلادنا يضمن « تغريبهم » وقطعهم عن جذورهم وتوجيههم الوجهة المطلوبة .

ويعمد الاستعمار الجديد إلى طرق مختلفة لضمان تأثيره الايديولوجي ويستخدم لذلك منظمات مختلفة لعل أطرفها ما يسمى بـ « فيلق السلام » الأمريكي الذي يتجه نشاطه الى شيء أساسي وهو صياغة الصورة الأفضل عن الولايات المتحدة وربطها برسالة تربوية انسانية وغرس محبتها واخماد المشاعر المناهضة لأمريكا في النفوس .

نظم الفيلق سنة ١٩٦١ ، وفي نهاية الستينات كان قد وزع نشاطه في ٢٥ دولةمن دول افريقيا، وكان أعظاؤه ينشطون في المدارس ودور المعلمين والجامعات والاذاعات وكانت مهمتهم في الاساس أن يكونوا « الوسيلة الأكثر فعالية لاستعراض ماهية الديمقراطية الغربية »[٢٣] . وقد طبلت أجهزة الدعاية كثيراً لاعضاء هذا الفيلق بل ورسمت لهم هالات من التضحية خاصة وانهم كانوا يتقاضون المرتبات الضئيلة التي تتساوى ومرتبات الموظفين المحليين وقد صدرت اليهم الأوامر بالا يقتنوا السيارات الفاخرة والا يتبجحوا بما يثير عليهم نقمة السكان ثم اتضح أن لهم مرتبات تصرف حال عودتهم الى بلادهم وتضعهم في مصاف من يخدمون الاحتكارات الأمريكية بكل نشاط .

والذي يهمنا في طبيعة هذه الفرقة من « الدعاة » هو أن افرادها يخضعون في بلادهم لاختبار مدقق ويهيأون تهيئة خاصة من اجل تحقيق أعمق تغلغل بين السكان . ثم انهم يستأثرون في العادة بتعليم مناهج الدراسات الانسانية وخاصة التاريخ والفلسفة ، والأدب بالاضافة الى اللغة الانجليزية أي المواد التي ترمي إلى « الأمركة » فـ « لا يوجد بينهم كيميائي واحد ولا فيزيائي ولا اختصاصي واحد بالاتصال اللاسلكي أو بناء الصناعة الثقيلة »[٢٤] .

(*) عن اوزادوفسكي . الولايات المتحدة وافريقيا ١٩٧٧ ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

واذا كان نشاط هذا الفيلق قد انكشف في عيون الكثيرين ، ولوحظ هبوط ملموس في حرارة نشاطاته فان ما قام به من نشاط في الدعاية الامريكية وما لا يزال يقوم به - أمور لا يمكن أن تخفى على عين .

وتستخدم الدعاية الغربية وسائل كثيرة للتأثير على الوعي في بلادنا . ومن القضايا التي تستحق دراسات مستقلة - وسائل الاعلام والمحاضرات والمواسم والنوادي الثقافية والمجلات والجمعيات المشتركة والأفلام التي لا تستخدم - بمجموعها - للهدف الانساني النبيل وهو التبادل الثقافي بمعناه الرفيع كما وتدخل في هذه الوسائل المساعدات التي تدفع لبعض الجامعات نظير تطبيق برامج معينة واقتحام النقابات العمالية ومحاولة حرفها عن اتجاهها واجراء الدورات التثقيفية العمالية على النهج الأمريكي .

* * *

كما ان من مظاهر الغزو الفكري الحديث - تلك الأوهام التي تغرس في حياتنا الثقافية وتسخر لها مختلف أساليب الاقناع . ولا غرابة اذا صادفت بعض الآذان المصغية ، فان صاحب الحق لم يعد في عالمنا هو الذي يملك الحق بل هو الذي يملك الوسائل الاعلامية الأقوى !! .

فالكتب ومنشورات الدعاية تحاول أن تغطي على الاضرار والويلات التي ألحقها الاستعمار بالشعوب وتحاول أن تلبسه دوراً تبشيرياً وحضارياً لا يمكن تجاهله . والمثل الذي يضرب على ذلك هو التقدم الذي تحقق في الولايات المتحدة وكندا وأوستراليا بفعل الاستعمار ، وهكذا يتناسى أن الاستعمار اتخذ في هذه الدول أشد أشكاله ضراوة فالحضارة التي أقامها المهاجرون في هذه البلاد انما أقيمت على انقاض حضارات أبيدت وأفنيت شعوبها . ومن خلال هذه الصورة التجميلية نسمع الأعاجيب : فالحروب التي شنت ضد الهنود الحمر كانت حروباً دفاعية[٢٥] . والقنبلة الذرية التي ألقيت على اليابان تكاد توصف بأنها رحمة نزلت على البلاد فأنهت الحرب ، والمنهج الأمريكي في الحياة هو الأمثل وبخاصة في الدول الحديثة العهد بالاستقلال . وقد اعلن زبيغنيو بريزنسكي استاذ جامعة كولومبيا والذي عمل طويلاً في مكتب الدولة على القضايا الخارجية بقوله : « ان نمط الحياة الأمريكية ، اسلوبنا ، الأنموذج الأمريكي ، وجميع مناهجنا تبين ، وبصورة متعاظمة ، المثال الذي يجب أن تقتدي به الدول الجديدة . واذا كان في العالم الآن مجتمع خلاّق فانه بالذات الولايات المتحدة الأمريكية »[٢٦] . وهكذا ترى أمريكا أن من واجبها - بل وربما ترى رسالتها أيضاً - ربط العالم بمنهجها ، وعلى هذا الاساس لا تكف عن الدعوة الى التخلي عن الفكر التقدمي والدعوة الى النظام الرأسمالي وربط الدول بأمريكا والغرب .

أما عندما يدور الحديث عن الدور الذي لعبته الأمم في بناء الحضارة الانسانية فعادة ما نحرم من أي دور في ذلك ، اذ كانت الحضارة ولا تزال وقفاً على الرجل الأبيض (والأبيض بالمفهوم الاستعماري هو الأشقر الأزرق العينين) واذا كان من دور قام به العرب فهو انهم نقلوا حضارة أوروبا اليونانية وحفظوها الى أن أفاقت أوروبا من غفوة العصور الوسطى القصيرة . أما الشعوب غير الأوروبية فأخضعت لأوصاف وتصنيفات لا مجال لذكرها هنا ، لكن نصيب العرب والافارقة وشعوب أمريكا اللاتينية منها هو الخمول والكسل وحب التأمل ، بل وقد تكون هذه الملامح أكثر دغدغة لمشاعرنا فنوصف بأننا روحانيون مرهفون ، ملائكيون ، قليلو الارتباط بهذه الأرض المليئة بالشرور . وكثيراً ما ننصح بالاحتفاظ بهذه الروحانية ليتسنى للغرب الفاجر المادي إحكام قيوده علينا واستكمال استغلالنا . والطريف أن معاهد كثيرة أقيمت لدراستنا (في المانيا الاتحادية اليوم ٢٤٤ مركزاً لدراسة مشاكل بلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية) ومعظمها ينتهي الى أن تخلفنا قدر لا مهرب منه ، وهو يكمن في نمط تفكيرنا بل وفي موقفنا من نظام حركة المرور وعدم اكتراثنا بالمواعيد[٢٧] ، أما سياسة النهب التي ظلت تمارس على أراضينا عبر قرون بكاملها فهي لا تؤخذ في الحسبان كما لا تدرس تجارب الدول الاشتراكية التي استطاعت أن تحقق نهضتها عندما تخلصت بحق من الاستعمار .

ومن الطبيعي أن تنتهي هذه النظريات إلى نتائج في غاية الخطورة وهي أولوية الرجل الأوروبي الأبيض وتفوقه وسموه وبالتالي سيادته . لقد كان تصور الأدريسي للعالم - مقلوباً - فاختص بلادنا بالجهة العليا من خارطة العالم ووضع أوروبا أدناها وجاء رسامو الخرائط الأوروبيون فصوبوا الخطأ وفرضوا علينا أن نقلب خارطة عالمنا الادريسي في كل مرة عندما نريد أن نتصور العالم بالصورة الصحيحة .

وأحيانا ما تُسرَّب إلى حياتنا الثقافية صور معاكسة لما ذكرناه وممعنة في التشاؤم فنسمع نظريات طريفة حول الانهيار الغربي الذي لا مندوحة منه ، وكم سمعنا بأن الغرب قد نخرته الجريمة واستوطنت جسده المخدرات وصدعه التهتك والفجور ، وأنه لم يبق إلا القليل ويتحول جسداً مهيضاً لا يحتاج حتى لسكين الجزّار لتقضي عليه . وتتجه أمثال هذه النظرية إلى تغطية قوته الوحشية ومخططاته وصرف النظر عن ذلك الكيان الاستعماري الذي لا يزال يمتص خيراتنا ويسمم اجواءنا ويضرب أطفالنا بالقنابل العنقودية . ان انهيار الغرب ليس قريباً ولن يتم بصورة تلقائية ولن تؤثر الجريمة أو المخدرات على ترسانات أسلحته الفتاكة التي تسجل كل يوم ارقاماً جديدة من الاسلحة الأكثر تطوراً ولا على تطوره الاقتصادي والعلمي الذي يمتص خيرة أبنائنا وعلمائنا .

نضيف إلى هذا التصور المستمر عن تخلفنا القدري تمزّقنا القدري أيضاً . ومن يستقرىء الدعاية الغربية يلاحظ ذلك التصميم الأبدي على تكريس التمزق العربي . وكلما فكرنا باقامة وحدة بين دولتين

استنفرت قوى التشكيك ـ وما أكثرها ـ لتصوغ وتهول الفروق القائمة بين الدولتين في الاطار الاجتماعي والطبقي بل وتصل الأمور الى اكتشاف فروق عرقية فيما بيننا !أما اذا خرجت أية دعوة انفصالية ولو كانت ضمن دولة لا تتجاوز بمساحتها مساحة عاصمة أوروبية مع ضواحيها وجدنا اجهزة الدعاية هذه تهبّ هبة واحدة لتبارك تلك الدعوة وتغرق أصحابها في أوصاف العقلانية والموضوعية والواقعية . وبهذه الطريقة وضعت الأحرف اللاتينية للغة العربية في مالطة ووضعت لها القواعد الخاصة وصارت تلك اللهجة تسمى بـ « المالطي » وكان أكبر أنصارها أولئك الذين نسمعهم يشيدون اليوم باللغة اللبنانية والكيان اللبناني بل والفلسفة اللبنانية كما وبدأنا نسمع الاذاعات تسمي « اسرائيل » بالدولة اليهودية وكأنها تعد الأذهان لقبول دول جديدة في المنطقة على أساس ديني ، وكأن العرب الأمة الوحيدة في العالم التي ابتليت بلعنة التمزق الأبدية في وقت يتجه العالم إلى الوحدات التي تضم عشرات الشعوب أو تشمل قارات بأكملها .

واذا كانت هذه الأوهام موجهة الينا على التخصيص فهناك أنواع من غسيل الأدمغة التي يتعرض لها أبناء الدول الغربية منذ الطفولة . واذا كانت هذه الدراسة لا تضع في مخططها اتجاهات التربية الغربية ، فان مما يقترب من موضوعها الأصلي أن نبين الصورة التي يحملها عنا أولئك الذين نتعامل معهم أو بالأحرى يتعاملون معنا لنعرف على الأقل نوعية العلاقة التي يمكن أن نتوقع أن تقوم بيننا على الصعيد السياسي أو الثقافي .

أورد الدكتور أياد قزاز معلومات مثيرة عن الطريقة التي تُربّى بها الأجيال الامريكية وتصدر من اجلها ملايين الكتب المدرسية المتجهة إلى تشويه صورة الانسان العربي عبر منظورات ثلاثة : صورة البداوة ، والاسلام ، والصراع العربي ـ الاسرائيلي . وصوّر الباحث كيف تتبارى الكتب المدرسية في تقديم الصورة البشعة للبدوي ولقساوة الصحراء التي لمست بعض اجزائها نعمة الحضارة الاسرائيلية فأحالتها جناناً خضراء . أما الاسلام فلم يُترك نوعٌ من التحريف واساءة الفهم المقصودة الا والصق به وخاصة في النظرة إلى الرق والى المرأة . أما في الصراع العربي ـ الاسرائيلي فيبين الباحث كيف تحول الذئاب الى حملان والغزاة إلى أصحاب الأرض وكيف يصبح اللاجىء المطرود من أرضه متطرفاً وارهابياً وغازياً [٢٨] . أما الصورة النمطية للعربي والتي تصورها تلك الكتب المدرسية فيكفي أن نمثل عليها بما يقوله الباحث « ونود أن نذكر مقالات أو حوادث أو أمثلة أخرى تبين المفاهيم الخاطئة التي يميل الناس إلى ربطها بالعربي ، يستطيع المرء أن يلخص هذه الصورة في المصطلحات التالية ، قذر ، بذيء ، غير مغتسل ، مخادع لا ضمير له ، دنيء ، متخلف ، بدائي ، متوحش ، شهواني ، متهوّس جنسياً ، محبٌ وله ، قدري ، كسول ، غير طموح ، متقلب ، ماكر ، راقصات هز البطن ، نصف عار ، صحراء ، جمال ، زعماء فاسدون ، غوغاء ، مندفعون ، تعصب وحروب مقدسة »[٢٩] ولا أعتقد أن هناك حاجة إلى أي تعليق على ما أورده الباحث . غير اننا نتساءل : لو قمنا بدراسة موضوعية لصورة العربي في جميع الدول الغربية ، فهل كانت الصورة لتختلف عن هذا أم تزداد شراسة ؟

والسؤال الآن : ألا يمتدّ هذا التشويه إلى أطفالنا عبر الموسوعات والمسلسلات المختلفة المترجمة حيث ينسب كل شيء إلى الغرب وتحاول كل موسوعة أن تسجل شرف الاختراعات والنقاط الانعطافية في التاريخ للأمة صاحبة اللغة المترجم عنها . بل وان صدور هذه الكتب يحدث نوعاً من الارتباك في اذهان الأطفال الذين يوازنون بين كل هذه المبارزات ، فلمن نسجل شرف المخترعات والسبق الحضاري ، لفرنسا أم لانجلترا لروسيا أم لأمريكا ، يمكن أن نجيب على هذا بما نريد شريطة ألا يقحم أي اسم عربي في الميدان .

إن تلك الكتب والموسوعات الجذابة الرائعة الاخراج خالية من الحديث عن تاريخنا أو حركاتنا التحررية ضد الظلم والاستعمار . وليت الأمر ينتهي عند هذه الحدود فهناك كثير من المعلومات المشوهة عن هذا التاريخ : * فالجهاد في شمال افريقيا ضد الغزو الأوروبي يسمى قرصنة ، والحروب الصليبية قامت لاسترداد ما استنزفه الشرق من ذهب الغرب . وحضارة المتوسط ـ يونانية ـ رومانية وحضارات ما بين النهرين تعود في جذورها لأمم من الآريين ، تطلق عليهم أسماء السومريين والليديين وسوى ذلك .

وأخيراً فان من الصعب أن تطوى صفحة الغزو الفكري دون الحديث عن واحدة من نتائجها الفاجعة ، وهي هجرة الأدمغة العربية . ان من يدرس هذه الظاهرة المحزنة لا يستطيع أن يتناسى الدور الذي تلعبه الدول العربية نفسها في التشجيع على ذلك**

لكن مما لا شك فيه أن حركات الجذب الشديدة التي تهيؤها الدول المتقدمة للاختصاصيين ـ المرتبات ، الوضع الاجتماعي ، الامتيازات وغيرها ـ تلعب دوراً حاسماً في عملية الهجرة . فالدول الغربية تستغل بذلك أوضاعنا وتخلفنا الاجتماعي أبشع استغلال

(*) شاعت منذ سنتين اسطورة البطل الخرافي غرايندايزر وصديقه كوجي وسفينته الساحرة ولقيت اقبالاً كبيراً من الأطفال . واذكر انني دخلت غرفة قتيبة وهو احد الأطفال المعجبين بالبطل الأمريكي فوجدته قد غطى جدران غرفته بصورة البطل وأصحابه ولما أبديت رغبتي لو كان في الغرفة صورة لطارق أو صلاح الدين اجاب باستنكار : وهل تريد أن أعلق في غرفتي صورة لفارس يركب الحصان ؟ أين الحصان من هذه السيارة الأمريكية ؟ وتساءلت آنذاك الا يمكن أن تكون شخصيات التاريخ العربي عصرية ، وكيف استطاعت شعوب أخرى أن تقدم شخصياتها المجيدة القديمة دون أن تضطر إلى تصويرهم داخل السيارات الأمريكية ؟

(**) نظمت اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا (اكوا) ـ الأمم المتحدة ندوة في هذا الموضوع وفيها بحثت الاسباب الضمنية لهجرة الكفاءات العربية ثم نشرت البحوث في كتاب بعنوان هجرة الكفاءات العربية . بيروت مركز الدراسات العربية ١٩٨١ .

ولعل « قضية الأدمغة أكبر مشكلة تعاني منها الدول الحديثة الاستقلال دون استثناء. فالدول الغربية تضع يدها على ما نبذل الأموال والسنين في تعهده وتربيته من عقول . والطريف أن تساهم هذه الدول وبكل « حماس » في دراسة هذه الظاهرة على أنها ظاهرة عفوية وكأن اغراءات الدعاية الغربية لا تساهم في ذلك أية مساهمة . فلننظر في هذه العبارة التي أوردتها ـ جون افريك ـ : « ان البعثات الأمريكية تنقب في العالم الثالث بحثاً عن المادة الشديدة الحيوية بالنسبة للاقتصاد المعاصر ـ وهي المادة الرمادية لدماغ الرأس . فيتم اغراء الشبان من الاختصاصيين والعلماء والأطباء نحو الولايات المتحدة الأمريكية ، ومثل هذا الوضع يعوق تطور الدول الافريقية ويضيف إلى العائق الذي يسببه نقص الرساميل عائقاً آخر وهو نقص التقنيين المحليين والذي يصبح لازماً استبدالهم بالاختصاصيين الأجانب ممن يطلبون التعويضات المرتفعة[٢٩]. ويطول الحديث اذا ما تحدثنا عما يلحق هذا من ضرر بحاضر البلاد ومخططاتها الانمائية نتيجة لهذه الهجرة الهائلة من الأدمغة فـ « بموجب معطيات اليونيسكو فان ما يقارب ١٠ آلاف شخص ، في مقدمتهم العلماء والمهندسون وعلماء الفيزياء والفنيون والطلاب يهاجرون سنوياً من البلدان العربية الثمانية التالية : ليبيا وسوريا والأردن والعراق ومصر وتونس والمغرب والجزائر ، وتسافر أغلبيتهم الساحقة الى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفرنسا وجمهورية المانيا الفيدرالية »[٣١] . فهل كانت هذه الدول قادرة على أن تمتص من بلادنا أية ثروة وبقوة أشد الاسلحة أعظم من هذه الثروة البشرية التي تحققها الدعاية واغراءات الغرب ؟

وقد بينت الاحصائيات أن تسرب الاختصاصيين ، اذا ما أُخذ الآن من زاوية تكاليف تعليمهم فقط ، يكبد بعض الدول النامية من الأموال ما يزيد بمقدار الضعف على المساعدة الأمريكية التي تتلقاها هذه الدول في ميدان التعليم . فاذا اضفنا الى هذا ما يساهم به هؤلاء الاختصاصيون في اثراء العالم الرأسمالي، ادركنامَنْ من الجانبين يقدم المساعدة للآخر ـ العالم النامي أم العالم الرأسمالي ؟ ان هذه العقول تلعب الآن بالنسبة للدول الرأسمالية الدور الذي كانت تلعبه ثروات العالم الجديد في تحريك آلته الصناعية ومضاعفة قوته .

* *

وأخيراً فلسنا من دعاة التحجر والانغلاق ، ونحن نؤمن بأن اركان العالم قد تقلصت كثيراً بفضل اجهزة المواصلات والاعلام ، ولم تعد تربية الانسان مقصورة على أسرته أو مدرسته أو المناهج التي تضمنها بلاده ، بل وتساهم في ذلك الوان من التأثيرات العالمية . غير أن ما نتجه اليه هو أن يكون لنا اسهامنا في تربية اجيالنا وان نكون قادرين على مجابهة الغزو الثقافي الاستعماري الذي يجتاح حياتنا ويواكب تدرج أطفالنا من دور الحضانة وحتى ما بعد الكليات الجامعية . ونحن الآن ندق أبواب القرن الحادي والعشرين لكننا نحمل اليه ، مثلما حملنا الى القرون العشرة التي سبقته ، تمزقنا وتخلفنا وتغربنا الثقافي ، بل واتجهنا الى لغتنا التي كانت لغة العلم في مرحلة من التاريخ فسحبناها من ميدان التداول العلمي واستبدلنا بها اللغات الفرنجية ولا تزال المحاولات جادة لفرنجة كل شيء في حياتنا ، وبعض الجامعات التي اجترأت على التعريب الشامل لكلياتها لا تزال تعامل معاملة المارقين وتعاقب على « جنوحها » بالصمت والتجاهل ، وما أكثر ما تخترع من مسوغات لذلك عندما لا تكون قضية التحرر الوطني الأصيل هي المحرك الأساسي لثقافتنا وتوجهاتنا .

اننا لا نتحدث هنا عن الحلم العربي الكبير بانشاء الأكاديمية العربية الجادة التي تشرف على برامجنا التعليمية عبر تخطيط مبرمج شامل وتقوم باصدار الموسوعات العلمية العربية التي تساهم في تكوين التجانس الثقافي القومي* وتقدم الحقائق العلمية الصحيحة للأجيال التي تبحث بصدق عن المعرفة فلا تجد ضالتها الا في مكتبات الغرب وعبر دعايته التي تتفنن في استغلال الفراغ الثقافي الذي نعاني منه . وقبل أن نتحدث عن المجابهة الفعالة للتصدي ، علينا أن نحقق الخطوات الأولى في وحدتنا الثقافية ، فنحن لم نتوصل حتى الآن إلى منهج موحد في تعليم الابجدية لأطفالنا ، ولم نتفق على منهج موحد في تدريس التاريخ أو في البحوث الجامعية أو ميادين الاعلام . إن الهوة المتزايدة الاتساع بيننا وبين الأمم المتطورة تثير الخوف في قلوب أكثر المتفائلين ، وكثير من الخطوات الثقافية التي قطعتها الأمم الأخرى منذ قرون لا يزال بالنسبة لنا حلماً بعيد المنال .

ونحن الآن أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أن نسير في الطريق الممهَّد الداعي الى الخمول والدعة وتعطيل فعاليات العقل ونؤمن بأن لا قِبل لنا في التصدي فنقبل بكل ما يجيء به الغزو الثقافي، وهذا طريق سهل لا يكلفنا غير استقلالنا وكرامتنا ، وأما ان نتنبّه إلى ما نحن فيه من خطر فنتفق ونتكاتف ونتصدى معاً لهذا المظهر الخطير من مظاهر الاستعمار الجديد .

جامعة الفاتح (الجماهيرية الليبية)

(*) أدرك رجال التنوير في فرنسا أن أهم العناصر التي يمكن أن تساهم في تكوين التجانس القومي هو اصدار الموسوعة فبدأوا العمل على اصدارها منذ حوالي القرنين ونصف القرن وكانت الموسوعة الانجليزية قد صدرت قبل ذلك .

(١) ملف « وثائق التمهيد للغزو » مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي طرابلس . الوثيقة رقم / ٥ .

(٢) في سنة ١٠٢٠ طلب تجار من امالفيا وساليرنو في ايطاليا من الخليفة السماح لهم باقامة مستشفى في بيت المقدس على اسم القديس يوحنا واجيبوا الى طلبهم بالموافقة فسموا انفسهم بالـ Hospitallers أي فرسان المستشفى وأسماهم العرب بالسبيتارية . ولم يكن المسلمون يعرفون أنهم بتلك الموافقة قد أقاموا طابوراً خامساً بين ظهرانيهم « فأثناء حصار بيت المقدس لعب هؤلاء دوراً بالغ الحيوية » ويروى أن رئيسهم جيرار كان يرمي إلى المحاصرين - بكسر الصاد - بأرغفة الخبز التي كان المسلمون عن حسن نية أو قصر نظر يحسبونها احجاراً » - خمسة أيام في مالطة ، الثقافة العربية . العدد ١/١٩٧٨ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) د . محمد بديع شريف ، د . زكي المحاسني د . احمد عزت عبد الكريم دراسات تاريخية في الوحدة العربية ، القاهرة معهد الدراسات العربية . ص ٧٧ .

(٤) عبد الرحمن الكواكبي . طبائع الاستبداد في كتاب عبد الرحمن الكواكبي الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٥ ص ٢٠٨ .

(٥) المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر ت . طلال عريسي . الفكر العربي السنة ٣ العدد ٢١ ص ٣٨٥ والترجمة مأخوذة عن :
Revue des Iniversités du Midi, tome 3 , 19 ème année 1897 pp. 206 - 240.

(٦) عن كتاب د . احمد صدقي الدجاني . ليبيا قبل الاستعمار الايطالي القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩٧ .

(٧) ينظر : أميل خوري وعادل اسماعيل . السياسة الدولية في الشرق العربي بيروت دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٥٩ الجزء ١ ص ٢٦ .

(٨) احمد صدقي الدجاني . المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٩) محمد مصطفى بازامه « بداية المأساة » بنغازي المطبعة الأهلية . ص ٥١ .

(١٠) السياسة الدولية في المشرق العربي . المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(١١) جورج أنطونيوس . يقظة العرب . تر . د . ناصر الدين الاسد ، د . احسان عباس بيروت ، دار العلم للملايين . ط ٤ ، ١٩٧٤ ص ٤٩٨ .

(١٢) ريني دوبستر (هايتي) الأسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا في كتاب : « الثقافة الافريقية » . ملتقى الجزائر (٢١ يوليو - ١ اغسطس ١٩٦٩) الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٩ ص ٣٠٠ .

(١٣) مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا - طرابلس . مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩ ص ١٨٥ .

Lois Bertrand , Les Cyclades. Revue des deux mondes , Janvier, Fevrier, 1922 p. 117.

(١٥) من كتاب : باولو مالتيزي « ليبيا أرض الميعاد » ترجمة عبد الرحمن سالم العجيلي ، طرابلس . مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ١٩٧٩ ص ٥٠ .

(١٦) فرسيس ماكولا « الغزاة » ترجمة عبد الحميد شقلوف طرابلس . الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان . ١٩٧٩ ص ٢٩ .

(١٧) مولود فرعون . مقدمة رواية « الدروب الوعرة » .

(١٨) جورج انطونيوس . المرجع السابق ص ٤٩٨ .

(١٩) Maupassant - Au Soliel . Paris 1884, p. 24.

(٢٠) ورد هذا المقتطف في مقال للدكتور عبد الجليل التميمي بعنوان : « التفكير التبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر ، المجلة التاريخية الغربية . تونس عدد جانفي ١٩٧٤ ص ٢١ وللدكتور دراسة هامة في هذا الخصوص بعنوان : « دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس » نشرت في المجلة المذكورة ، عدد جانفي ١٩٧٥ .

(٢١) د . اسماعيل صبري مقلد « الاستراتيجية والسياسة الدولية » بيروت مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٧٩ ص ٥٨ .

(٢٢) السلامي الحسيني . الجندي المجهول يموت اغتيالاً . مجلة « الدستور » لندن . العدد ٢١٩ ، ١ شباط (فبراير) ١٩٨٢ ص ٧٨ .

(٢٣) The New York Times 24 - XII - 1962 .

(٢٤) Africa , London, March, 1973, N° 19 .

(٢٥) لا يزال بعض المؤلفين الامريكان ينقمون على الهنود الحمر لأنهم سفكوا دماء الفاتحين ظلماً وعدواناً : فكانت حروبهم مجرد ردة فعل ، ويصرح وليم تيل شتورز بذلك في فصل « الفاتح » من كتابه هذا العالم الجديد - القاهرة دار النهضة مصر ١٩٧٠ ، اذ يقول : « كانت وحشية الهنود الحمر تستلزم الرد بالمثل » ص ١٦٣ .

(٢٦) Z. Brzezinski, The Implication of Change for U. S. Foreign Policy, Washington, 1973, p . 3.

(٢٧) W. S. Freund. Unterent wicklung in Strukturalisti- scher Sich. « Aspekte der Entwicklungssoziologie» Koln - Opladen, 1969, S, 519

وقد اطلعنا على نظرة هذا المفكر وأمثاله في كتاب : الاستعمار الجديد وافريقيا في السبعينات . موسكو دار التقدم ١٩٧٥ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، ٣٠٧ .

(٢٨) د . أياد القزاز . صورة الانسان العربي لدى الامريكيين . دراسات عربية السنة ١١ العدد ٨ ، ١٩٧٥ .

(٢٩) د . اياد القزاز . القوالب النمطية عن العرب في أمريكا . دراسات عربية السنة ١١ العدد ٥ ، ١٩٧٥ ص ١٢ .

(٣٠) Jeune Afrique 19 - I - 1971 .

(٣١) الاستعمار الجديد وافريقيا في السبعينات . المرجع السابق ص ٣٢٣ .

ثبت المراجـع

١) جوتان سويفت . رحلات غولليفر . من كتاب : مدخل الى تاريخ الآداب الأوروبية طرابلس . الدار العربية للكتاب ١٩٧٩ .

٢) ملف « وثائق التمهيد للغزو » مركز جهاد الليبيين . طرابلس الوثيقة رقم ٥

٣) خمسة أيام في مالطة . « الثقافة العربية » العدد ١ ، ١٩٧٨ .

٤) محمد بديع شريف ، د . زكي المحاسني ، د . احمد عزت عبد الكريم دراسات تاريخية في الوحدة العربية . القاهرة . معهد الدراسات العربية .

٥) عبد الرحمن الكواكبي . طبائع الاستبداد ، الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٥ .

٦) المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر . تر . د . طلال عتريسي « الفكر العربي » السنة ٣ العدد ٢١ .

٧) أميل خوري وعادل اسماعيل . السياسة الدولية في الشرق العربي . بيروت دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٥٩ .

٨) د . احمد صدقي الدجاني . ليبيا قبيل الاستعمار الايطالي القاهرة ١٩٧١ .

٩) محمد مصطفى بازامه بداية المأساة . بنغازي ، المطبعة الأهلية .

١٠) سعيد الافغاني . من حاضر اللغة العربية ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧٦ .

١١) جورج انطونيوس . يقظة العرب تر . د . ناصر الدين الاسد ، د . احسان عباس بيروت ، دار العلم للملايين ط ٤ ، ١٩٧٤ .

١٢) العربية والتعريب الى الجزائر . مجلة كلية التربية . جامعة الفاتح العدد ١٩٧٨/٨ .

١٣) ريني دوبستر . الاسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا . من كتاب : الثقافة الافريقية . الجزائر . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٩ .
١٤) مذكرات الضباط الاتراك حول معركة ليبيا . طرابلس مركز جهاد الليبيين ١٩٧٩ .
١٥) باولو ماليتزي . ليبيا أرض الميعاد . تر . عبد الرحمن سالم العجيلي . طرابلس . مركز جهاد الليبيين ١٩٧٩ .
١٦) فرنسيس ماكولا . الغزاة . تر . عبد الحميد شقلوف . طرابلس . الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ١٩٧٩ .
١٧) مولود فرعون . الدروب الوعرة .
١٨) مولود فرعون . يوميات معركة الجزائر . تر . عبد العاطي جلال . الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف ، ١٩٧٠ .
١٩) د . عبد الجليل التميمي . التفكير التبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر . المجلةالتاريخية المغربية . تونس عدد جانفي ١٩٧٤ .
٢٠) د . عبد الجليل التميمي . دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس . المجلة التاريخية المغربية . عدد جانفي ١٩٧٥ .
٢١) الطيب العقبي . يقولون وأقول . الشهاب قسنطينة ، ١٨ فيفري ١٩٢٦ .
٢٢) عبد الكبير الفاسي . العلماء والطوائف بالمغرب . الشهاب . قسنطينة ٤ سبتمبر ١٩٢٦ .
٢٣) د . اسماعيل صبري مقلد . الاستراتيجية والسياسة الدولية . بيروت مؤسسة الابحاث العربية ١٩٧٩ .
٢٤) فرانتز فانون معذبو الأرض تر . د . سامي الدروبي ، د . جمال الاتاسي بيروت دار النصر ١٩٦٧ .
٢٥) د . احمد حسن مأمون . لماذا نهمل الترجمة إلى العربية . العربي العدد ٢٦٨ مارس ١٩٨١ .
٢٦) السلامي الحسيني . الجندي المجهول يموت اغتيالاً . الدستور . لندن العدد ٢١٩ في ١ شباط ١٩٨٢ .
٢٧) أوزادوفسكي . الولايات المتحدة وافريقيا ١٩٧٧ .
٢٨) وليم تيل شورز . هذا العالم الجديد . القاهرة . دار نهضة مصر ١٩٧٠ .
٢٩) الاستعمار الجديد وافريقيا في السبعينات موسكو . دار التقدم ، ١٩٧٥ .
٣٠) د . أياد القزاز . صورة الانسان العربي لدى الامريكيين . دراسات عربية السنة ١١ العدد ٨ ، ١٩٧٥ .
٣١) د . اياد القزاز القوالب النمطية عن العرب في أمريكا ـ دراسات عربية السنة ١١ العدد ٥ ، ١٩٧٥ .
٣٢)) هجرة الكفاءة العربية . بيروت . مركز الدراسات العربية ١٩٨١ .

٣٣)
Lois Bertrand Les Cyclades. Revue des deux mondes, Jan - vier. Fevrier - 1922.

٣٤)
Maupassant. Au Soliel - Paris, 1884.

٣٥)
Africa Report, November, 1970.

٣٦)
The New York Times 24 - XII- 1962

٣٧)
Africa, London, March 1973 N° 19.

٣٨)
Z. Brzezinski, The Implication of change for U. S. Foreign Policy. Wastrington, 1973.

٣٩)
Jeune Afrique . 19 - I- 1971.